

رواية
أبو عبدو البغل
كرم صابر
جبر الرضا
وعد

"جبرالرضا"

رواية

كرم صابر

رواية : جبر الرضا
المؤلف: كرم صابر
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٤٣٧
الترقيم الدولى: ١-٨٤-٣١١٥-٧٧٩-٨٧٩
الاخراج الفنى: سالى محمد

وعد للنشر والتوزيع
٣ محمد حلمى إبراهيم – متفرع من شارع شامبليون – وسط البلد – القاهرة.
تليفاكس: ٠٢٥٧٤٥٨٧١

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

للأفاقين الذين

أجبرونى على اختيار طريق الرضا،

ولأصدقائى

الذين دعّمونى لكتابة هذه الحكاية.

لهم كل التقدير والثناء.

القسم الأول: الجبر

"حمدى"

مهمة شبة مستحيلة ألقتها السلطات على عاتقى، قال المسؤول الكبير وصوته الفخم يحذرنى: "إن مراقبة هؤلاء الناس، ومعرفة ما يقومون به سر لن تبوح به لنفسك، سوف تكتب تقاريرك دون أن ترينا وجهك، سوف تبدع وأنت تكتب انفعالاتهم وتنشرها فى الإعلام الذى سيفتح أبوابه لك باعتبارك خبيرًا، لتلقى ببعض المفاهيم التى توضح الحقيقة، إن مهمتك المستحيلة ليست فى صياغة التقارير، ولكن فى قوة الأشخاص الذين ستقوم بمراقبة حياتهم؛ لتعرف من خلال الأحاديث والانطباعات الخطر الداهم على بلادنا".

بعد انتهاء تعليماته وقف خلف المكتب الذى يفصلنا، اقترب حتى أصبح فى مواجهتى، وقال: "نحن على ثقةٍ بأنك يمكن أن تتحمَّل المسؤولية الكبرى".

ودَّعنى، ونظر بصرامةٍ يحذرنى من المخاطرة، وأضاف وجهه الحليق لوسامته قوة رجال الأجهزة التى تملك بيديها كل شىء.

المبنى الذي جمعنا غريبًا، لم أتخيل بحياتى أن يعيش بشر وسط هذه المخابئ، عشرون بابًا تم فتحها وغلقها قبل الوصول إلى حجرته، عشرة مصاعد دخلت وخرجت منها، مئات الطرق والحجرات المفتوحة على حجرات أخرى حتى وجدت نفسى أمامه.

حين خرجت وجدت الأبواب كلها مفتوحة، قابلت صديقًا قديمًا عرض علىَّ العمل كمستشار بمركز بحثى تابع للجامعة الأمريكية بعشرة آلاف جنيه شهريًا، بعد أسبوعين من موافقتى، طلب منى إعداد تقرير عن حال الأهالى بقرية غريبة بمحافظة الفيوم.

لم أكن أفهم العجلة التى تم ترتيب الأمور بها، كل شىء بحساب ، لا يمكن أن تقوم بإشارة لليد دون أن يتم تحليل مضمونها.

عندما عرض علىَّ دكتور "عبد العال" مدير مركز البحوث العمل، أيقنت بأن عالمًا جديدًا يدخل عقلى، ترك لى حرية الاختيار، ففهمت أننى مجبر على السير بطريقٍ لا أعرف نهايته.

دكتور "عبد العال" رجلا وسيمًا، فى الخمسين من عمره، لا يتحدث كثيرًا، كلامه مجرد رسائل وأوراق يتسلَّمها ويرسلها دون مشاعر، أصبح نجمًا كبيرًا فى عالم الدراسات، يجعلك وقته الثمين تقف شهورًا؛ لتنعم بمقابلةٍ يحدد فيها مصير العالم ودورك، رغم أنه غير متزوج إلا أنه دائمًا مشغول البال.

قال وهو يودعنى فى اليوم الثانى بمكتبه بشارع قصر العينى الذى أنعم على فيه بزيارته: "لا تتردد فى كتابة أى شىء تراه، إن عملك مقدس بالنسبة لمركزنا، سوف ننشر كتابتك بكل اللغات، لا تهتم بتنظيم الرحلة للقرية، رتبت كل شىء، سيأتى لك السائق بسيارة الجامعة فى التاسعة صباحًا، سوف يحدثك".

نظر بتحدٍّ فى مواجهتى، وقال: "إننا نثق بقدراتك الفذَّة فى كتابة حاضر وتاريخ هؤلاء البشر ".

نزلت من عنده وأنا مذهول من حالى ، فقبل عدة شهور كانت الدنيا تقف ضدى، طردتنى زوجتى من المنزل وأخذت طفلتى، جعلت حياتى جحيمًا، لم يكن عملى بمركز البحوث الحكومى كافيًا لأستأجر شقة جديدة بحى راقٍ، ومع ذلك خرجت مندهشًا من تلاحق الأحداث، اتجهت لشقتى الجديدة أحاول ترتيب روحى .
دخلت الحمام وأخذت دشًا ساخنًا، نمت عاريًا ، فى الصباح كان السائق الذى نقلنى للقرية ينتظرنى ، دون أن يرد سلامى فتح باب السيارة الخلفى، وقال: "تفضل يا باشا"، جلس على مقود السيارة مجردًا من الأحاسيس، انطلق القرية التى تبعد عن القاهرة نحو مائتى كيلو فى صحراء الفيوم.

أنهينا الطريق الملاصق لبركة "قارون"، نظرت حولى شمالاً ويمينًا، لم أجد إلا الرمال الصفراء الممتدة، ومن بعيد ظهرت بركة مياه وادى الريان كمقبرة وسط الصحراء.

استأذنت السائق ليقف، نزلت بتلقائية أستمتع بالفضاء والرمال الممتدة، تبولت دون غضاضة أو اهتمام بانطباعاته ، كان الجو موحشًا ودرجة الحرارة تتجاوز الأربعين ، جسمى ينز من العرق فعدت للسيارة، وأغلقت الباب، تحسست هواء التكييف البارد، ضحكت بينى وبين نفسى وقلت للسائق فى سخرية حين ظهرت أشجار قرية الخضر من بعيد: "هل هناك قضايا اجتماعية هامة فى هذه الواحة؟ أى انطباعات يرغب مركزكم فى نقلها عن هؤلاء الأموات؟" لم يرد ، لكنه أرسل إشارات تفيد أنه يعمل سائقًا، ولا يفهم إلا فى أنواع السيارات واتجاهات المرور.

ظهرت بيوت قرية الخضر وزراعتها من بعيد كواحة وسط القحط، تعجبت من ناس هذه البلاد التي تنبت الحياة في اي مكان ، قلت لنفسى: "من كان يتصور أن فى وسط هذه الصحراء شيئًا سوى الموت؟!"

"ضاحى"

استقبلنا رجل فى الأربعين من عمره حليق الذقن، يلبس جلبابًا أسمر، ويغطى رأسه بعمامة بيضاء، قال بترحاب بعد نزولى من السيارة: "يادى النور.. يادى النور، الخضر نورت يا باشا".

أخذنى لمنزله ، جلست على كنبة الأنتريه بالحجرة الوحيدة بالمنزل، قدم الشاى، وقال: "البلد مليانة مشاكل، مش عارف نبتدى منين؟" أحسست بأنه يفهم طبيعة عملى ومهمتى، يقول كلامًا شبيهًا بكلام مدير المركز، فقلت : "هل قابلت دكتور عبد العال؟" قال: "تحدث معى بالتليفون ساعتين بالأمس!!"

يدل الأثاث والسجاد بألوانه الباهتة على زهد الرجل، ورغم الرمال المنتشرة فى السماء، فإن الحجرة كانت نظيفة.

مرت امرأة غطت وجهها من أمام الحجرة ونادت: "يا شيخ موسى أنا هطلع أوزع العيش، الناس تجمعت كلها فى الدكان"، استأذننى وخرج ملبيًا نداء العشرات.

كان الجو الخانق بالشارع المؤدى لمنزل الشيخ ، تراصت البيوت التى سلمتها الدولة للفلاحين كأنها مقابر مغروسة بالرمال الشاسعة، أذهلنى منظر الصرف الصحى المختلط بمياه الشرب عند الصهريج ، حين توقف السائق نتيجة الرائحة البشعة التى اخترقت الزجاج وأزكمت أنوفنا، سألنى باندهاش: "أتريد أن نستكمل الطريق أم نعود؟" نظرت إليه بعد غلق الزجاج قائلاً: "اسأل على منزل الشيخ موسى ".

عاد الشيخ مبتهجًا، وقال: "الناس حكوا لى أنك توقفت عند محطة الصرف ، نحن لا نهتم باختلاطه بمية الشرب ؛ لأن مياه الشرب التى تصل للصهاريج ملوثة، مليئة بحشرات مميتة أكثر من صرفنا، أنت تعرف أننا نشرب من مياه بركة وادى الريان التى هى مصرف كبير لمدن الفيوم، محطة المياه التى أقامتها الحكومة والأجانب على مدخل قريتنا لا تعمل منذ رحيل الخواجات، رغم أن العشرات يموتون سنويًا؛ بسبب إصابتهم بالأمراض، إلا أن المستشفى الحكومى بالفيوم تقبل دخول الأهالى فى اللحظة الأخيرة؛ لتضع جثثهم بالمشرحة، لتحصى جرائم موظفى محطة المياه.. أرسلنا استغاثات وشكاوى كثيرة، لكن لا أحد يهتم".

نظر من الشباك المفتوح على الشارع وقال: "لازم تأكل حاجة، أنت مقامك كبير يا أستاذ، مركز البحوث والدكتور فرنسو علمونا حاجات كثير، إحنا من غيركم كنا متنا فى الصحراء!!"

دخلت امرأة ثلاثينية الحجرة وهى تصرخ: "فين الحرامى، يا شيخ موسى، يا إمام الجامع، أنت فين؟" كان الناس يشدونها، وزوجته تحاول منعها بكل قوتها، لكن الغضب الذى يملأ وجه المرأة يستحيل وقفه، اعتذر الشيخ منى وقال: "عايزة إيه يا هنية، يا وليه يا وش الشر انطقى ".

حين شاهدتنى المرأة انفرجت أساريرها؛ لأنها أحست أن فضيحة الشيخ بجلاجل، سألتنى: "أنا هرضى بشهادتك يا أستاذ، ممكن أعيش أنا وست عيال بخمسة أرغفة كل يوم، يكفُّوا

مين ولا مين؟ ولا نأكل نصف طقه فى اليوم؟!" لم أرد واستهجنت سلوكها بحيادى، فاستكملت: "الشيخ بيستلم العيش من المحافظة، ويتاجر فى الجراية التى توزعها الدولة علينا حتى لا نموت من الجوع، يسلم كل بيت بالقرية خمسة أرغفة بربع جنيه، ويبيع الرغيف بعد ذلك بعشرة قروش".

رغم أننى لم أفهم الحكاية ، لكننى تيقنت أن الشيخ يتلاعب بحصص الخبز، تراجعت حدة الشيخ معها، وتحدث بكل رقة : "يا هنية كل يوم تعملى مشكلة وأنتِ عارفة أننى أتسلَّم العيش بعدد أهل الخضر، ولازم أوزعه على الكل ولو حد غايب لازم أخلى نصيبه عندى لآخر النهار يمكن يكون مسافر ولا غايب فى الغيط، ومع ذلك خذى نصيبى يا هنية"، وطلب من زوجته أن تسلمها خمسة أرغفة إضافية.

ضحكت "هنية" وهى تنظر بعيونى، وقالت بسخرية: "دايمًا حنين يا شيخ قردا!" ضحك الرجل وطالبنى بالقيام معه لنصلى بالمسجد صلاة العصر، طلبت بأدب أن يسمح لى بالرحيل على أن أعود الأسبوع القادم، لأتعرف معه على المشاكل ونرفعه للسلطات؛ كى تقوم بدورها.

نظر الرجل إلىَّ بذهول كأننا نستعد لإخراج فيلم سينمائى، وقال ساخرًا لنفسه: "أيحتاج خلط مياه الشرب بالصرف، وقطع الكهرباء، وعدم وجود مستشفى، وتركنا كالكلاب وسط الصحراء لدراسات وسلطات وتوصيات؟!"

لم أهتم بانطباعاته، وسرت معه حتى باب الجامع، ودَّعنى بحرارة مفتعلة، فتحت باب السيارة ودخلت فيها أتحسس برودة التكييف، مسحت العرق والتراب الذى التصق بوجهى، قبل انتهاء الشارع تجمع الناس ومنعوا السيارة من المرور ، أحيطت "هنية" بعشرات الرجال والنساء الذين علموا بوجودى بمنزل الشيخ "موسى".

طلبت من السائق التوقف وفتحت باب السيارة ونزلت لأفهم ما يجرى، فقال رجل عاقل: "نحن لا نريد إيذاءك، نحن نرغب فى الجلوس معك ، لتتعرف على حكايتنا فمادامت قدماك وطئت قريتنا فإنك ضرورى من المسؤولين الذين سمعوا أنيننا "، قبل أن أرد صرخت "هنية" من بعيد: "أنت كنت بمنزل اللص الآن، ويجب أن تساعدنا وتمنع السرقة. إننا نموت والكلب وأتباعه يأكلون لحومنا".

صرخ صبى لم يتعدَّ عمره عشرين عامًا: "نحن نحتاج الخبز والمياه، لا تصدق كلام الشيخ موسى والمخبر، حتى لو كانت ملابسهم ناصعة البياض".

أخذتنى قدماى لوسط الحشد، جلست أمام أحد البيوت أتوسطهم ببذلتى السوداء ، أظهرتنى ملابسهم المتسخة والمتهتِّكة كشخصٍ مسؤول، أحسست بأن القاذورات تملأ الأرض؛ لأن مجرى الصرف الصحى يمر بجوارنا وتظهر بقايا الخراء متجمدة، لكنى وجدت فى عيون المحيطين دهشة كسحت الروائح النتنة، خاصة حين قالت امرأة عجوز جلست بجوارى بهدوء: "أين كنتم ونحن هنا منذ عشرين عامًا هنا ننتظر الموت؟ سلمتنا الدولة البيوت والأرض، هجرنا الأجانب ، فتوقف عمل محطة المياه، انقطعت الكهرباء؛ بسبب تعطل المحول، امتلأت مياه الشرب بالجراثيم؛ بسبب نفاذ الكلور".

قال أحد الرجال : "مياه الرى التى تصلنا تحرق الزرع وتملح الأرض"، وأستكملت "هنية": "أنت هتعمل لنا حاجة غير السمع والطاعة، وهز الرأس والاندهاش"، صرخ فيها الرجل العاقل الذى عرفت أن اسمه "ضاحى"، وقال : "استنى يا هنية"، إحنا لسه معرفناش

الأستاذ مين، يظهر ميعرفش حاجة، أنت منين يا أستاذ؟" وقبل أن أرد ، قالت إحدى النسوة مُوجهة كلامها لـ "هنية": "اقعدى يا ولية، ولا أنت علشان جوزك هج محدش قادر يلمك"، قلت : "يا جماعة أنا أعمل بمركز بحثى أمريكى، طلب منى القيام بعمل دراسة عن قريتكم؛ لنتعرف على مشاكلكم ونرفعها للمسؤولين لحلها، وسوف أعود الأسبوع القادم لأسمعكم، لن تكفينى حكايات الشيخ موسى بعد مشاهدتكم".

استأذنت مرة ثانية ليسمحوا لى بالرحيل، كانوا يندهشون من برودى وأنا أرى الصرف الصحى يمر من وسطنا، وأطلب مقابلة أخرى لأتعرف على مشاكلهم!!

نادت امرأة عجوز أشبه بالمتسولين: "جبر الخواطر عليك يا رب"، نظروا جميعًا ناحية الصوت وساد الصمت، فقمت فى غفلة منهم وركبت السيارة عائدًا لمنزلى بالقاهرة.

"هنية"

أعاد الطريق الموحش من الخضر إلى منزلى رحلة الجنون لعقلى، الصور الكثيرة والقديمة اختلطت مرة واحدة وظهرت أمامى واضحة، تذكرت أبى وأمى حين كانا يتعاركان، كنا نجلس أنا وأختى بالصالة فى صمت، ونحن نسمع السبَّ المتلاحق والإهانات المعادة المكررة كل عدة أيام لأبٍ وأم تعودا على فضح تاريخهما أمام أبنائهما، وتوريثهما أحداثًا مؤسفة جرحت قلوبهم وقلوبنا.

ينزل كل صباح للمحكمة مرتديا بذلته السوداء مُدَّعيًا حماية البشر من الظلم، دائمًا تُردد أمى أنه يعمل فى القضايا الوقيع، يقف يوميًا على سلالم المحكمة، يقابل المجرمين ليحضر معهم أمام النيابة،اضحي المقهى أمام المحكمة بمثابة مكتب لزبائنه، عشرون عامًا كان يخرج ببذلته السوداء ويعود بها، لم يغيرها إلا فى أيام الأعياد وليالى رمضان الطويلة، عاش معنا محتقرًا وجودنا، كان يقول لنفسه بصوتٍ عالٍ: "ولدت بالخطأ" فى هذه الدنيا، فكيف لى بعد دراسة القانون تقاضى نصف ما يتقاضاه العامل بالمقهى؟!

قال السائق فجأة، بعد أن أيقظنى وهو يقترب من باب منزلى بمدينة نصر: "لم يعد سوى الصحراء"، كان يتحدث كأننا موتى فى عالم الأشباح. ودعنى دون أن ينظر فى وجهى، كانت الساعة تقترب من الثامنة.

صعدت سلالم الدور الثالث، فتحت باب الشقة، ودخلت مباشرة للحمام أغتسل ، ، دخلت المطبخ وأكلت قطعة جبن مع البقسماط، وجلست بحجرة المكتب أرتب أفكارى؛ لأكتب جزءًا من تقريرى الذى سأقدمه للمركز، وجدت نفسى منطلقًا خارج إطار الزمن، قلت بصوت مسموع أخافنى: "لا يمكن الرجوع للوراء، تجاوز الأزمات والماضى هو أقصى طموحك".

تذكرت الزوجة والبنتين اللائى تركتهنَّ بعد ضيق مساحة الهواء بالشقة، ، انفجرت هاربًا بعد اختناقى من حكايات الزوجه المكررة حول علاقتى بالنساء ونطقت بكلمة الطلاق، كان يجب أن أتحمل جنونها، فهى لا تعرف طبيعة عملى.

حاولت أن أَخُطَّ بعض الحكايات التى سمعتها اليوم، لكننى أحسست كأننى أكتب عن بشر ميتين ، فكيف يتصارع أهالى قرية نائية على الخبز والمياه، وينحصر دور الحكومة على حصر الميتين؟! هل يمكن أن يكونوا أحياء معنا بنفس الزمن، ولا يدرون شيئًا عن الحى الهادئ الذى يأويني ويمتلئ بالحدائق والمولات والسيارات الفارهة ؟!

كان سؤالى الأساسى فى هذه الليلة فى التقرير "ما الأمانى المشتركة لهؤلاء البشر؟" حاولت النوم فشاهدت "هنية" التى عايرتها جارتها بهجران الزوج، عدت مرة أخرى لمكتبى، وأمسكت القلم وكتبت : لماذا ترك زوج "هنية" الخضر وهاجر؟ هل أعجزه النظر لبراءة عيونها، أم أن الأرغفة المعدودة التى لم تكن تكفى أولاده جعلته يطفش ؟ كيف طاوعه قلبه على تركها وحيدة تواجه شماتة الجيران؟!

تذكرت قولة أبى وهو يسخر من جهلى: "اختر طريقك بحرية"، كان حزينًا وأنا أملأ بطاقة التنسيق، كتبت الرغبة الأولى "كلية الاقتصاد والعلوم السياسية"، ورفضت دخول كلية الحقوق، قالت أمى: "اتركه لحاله، ولاَّ عايزه يقعد على القهوة جانبك"، خرج من البيت حزينًا

لاحتقار مهنته، تراكمت الوحدة القاتلة هذه الليلة على عقلى وكادت تصيبنى بالجنون، عاد منظر الضابط "دسوقى" بالجهاز وهو يحذرنى بحبٍ ويقول: "نحن نثق بك".

كانت مكالمة غريبة تلقيتها من أحد أتباعه يطلب مقابلتى بمبنى المخابرات ، كنت مذهولاً لمعرفة هذه الأجهزة تاريخ حياتى وعلاقاتى، وجدت ملفًا أمامه مدونًا به كل شىء منذ الميلاد ، طلب منى مساعدتهم على ملاحقة مشاعر الناس الطيبين فى البلاد البعيدة، قال: "إن كتابتى مفيدة جدًا لعملهم ، ودون أن أفهم العلاقة بينهم قال: "سوف تنفتح الدنيا أمامك، ولكن لا تبخل علينا برؤيتك الحكيمة".

اندهشت رافضًا عملى كمخبر، ضحك وقال: "إن عملنا تطور، لا نحتاج سوى أن تكتب بالإعلام بحرية كل انطباعاتك ".

كانت ليلة طويلة وغريبة، فبعد أن انتشلنى الدكتور "عبد العال" من عملى الرتيب بالحكومة، ووضعنى وسط الأحداث اليومية للبشر فوجئت بعجزى عن الكتابة.

كان عطوفًا وهو يقابلنى دون موعد سابق، فقلت لنفسى: "يجب تحدى المخاطرة، ولا يهم إن كانوا يديرون العالم أم يدمرونه ، المهم أن أحيا وسط الأحداث"، كان الاختيار سهلاً، قلت برضا وتواضع: "لكن المبلغ كبير"، قال مدير مركز البحوث صديقى: "أنت علامة تاريخية لهذه البلاد، يجب التعاون معك، أنت تستحق أكثر من ذلك".

فجأة تذكرت بقايا صور الأصدقاء، وابنتىَّ وزوجتى، وحجرة نومى المتواضعة فى الشقة القديمة، لكن صرخات زوجتى أعادتنى لوحدتى مرة أخرى فكتبت دون أدرى قبل استغراقى بالنوم "اترك الرسالة وانتحر".

"عدولة"

طلبت من المركز أن يوفر لى إقامة بالخضر لمدة أسبوع متواصل، اقتنع المدير بعد أن كشفت له جزءًا من الحكايات التى سمعتها بالقرية المعزولة التى يعيش فلاحوها بلا كهرباء ولا مياه ولا خبز ، اتصل بالشيخ "موسى" ليجهز منزلاً لفهم جوهر الرضا.

مر علىَّ السائق فى الموعد المحدد، حملت حقيبة ملابسى وأدويتي ، وضعتها بجوارى على الكرسى الخلفى، وانطلق السائق، ولم يتحدث إلا بعد نصف المسافة وقال: "سأتركك وحدك وأعود بعد أسبوع"، قلت مداعبًا صرامته: "يمكنك العيش معى هذا الأسبوع إذا كان الطريق طويلاً"، قال بتلقائية : "عندى عيال يا باشا، ميقدروش يستغنوا عنى".

لماذا كنا نستغنى عن أبينا ولم نعطِه ولا مرة واحدة الإحساس باحتياجه؟ أيعود ذلك لاحتقاره ، أم لوجود جسرًا بيننا، لم نتمكن طوال حياتنا من النظر بحنية إلى عيونه؟

فتحت كتابًا أخرجته من الحقيبة، واستغرقت فى حكايته العجيبة عن خطايا الأنبياء وغفران الآلهة، حاولت مداواة الجرح الذى فجره السائق ، فكيف يحيا إنسان مثلى دون أن يحتاجه أحد؟! الجميع استغنى عنى، ولم يعد لى إلا دراسات الحالة التى أتعرف عليهم وأعاشرهم، وأكرههم وأحبهم كأنهم أهلى، كان عزائى الوحيد لعزلتى هو اللقاء الشهرى الذى أحضره للجمعية الروحية التى تخرج الأشباح من داخلى وتطهرنى، وتعيدنى كإنسان أشعر بما يشعر به البشر.

يحكى الكتاب بخلاعة عن معاشرة نبى يُدعى "لوط" لبناتٍ لا أتذكر إن كُنَّ بناته أم أخواته، لكنى فهمت أن الإنسان قبل أن يخلقه الله مسجل تاريخ وفاته وميلاده، ورزقه فى اللوح المحفوظ، ولن يفلت أبدًا من مصيره مهما حاول التمرُّد.
سألت نفسى ونحن نقترب من القرية: "لو عاد نبى الله محمد لهذه القرية ، كيف يمكن أن يبشر برسالته الخالدة؟"

أعاد مدخل الخضر لروحى الوحشة ، كانت درجة الحرارة عالية ، والرمال حولنا جعلت الصهد يحرق العيون، لم يكن بالشوارع أى أطفال أو رجال أو نساء ، سألت السائق: "تعرف منزل الشيخ موسى؟ " رد بتلقائية: "البيوت كلها شبهه بعض!!"

وقف بسيارته أمام دكان تتوسطه امرأة تتفجر أنوثة وسط قحط الرمال، فتح الزجاج الأمامى، وسألها: "فين بيت الشيخ موسى يا حاجة؟" ضحكت بخلاعة وقالت: "يسمع من بقك ربنا يا خويا .. حاجة مرة واحدة يا أفندى"، خرجت عارية الرأس من باب الدكان واقتربت من شباك السيارة، لمحتنى بالكرسى الخلفى، فقالت مبتعدة: "رابع بيت على اليمين".

أغلق السائق مسرعًا زجاج السيارة واقترب من منزل الشيخ، وقال كأنه: "حمدًا لله على السلامة يا باشا"، نزلت بحقيبتى، ونادى على الشيخ، خرجت زوجته دون غطاء الرأس خلافًا للمرة السابقة، وقالت: "مين عايزه؟" رد السائق: "عندنا معاد معه".

دخلت مسرعة وغطت شعرها ، وعادت ووجهها يمتلأ بكارة ، وقالت: "اتفضلوا لحد ما يجى من الجامع"، دخلت حجرة الأنتريه التى جلست فيها المرة الفائتة، تركنى السائق دون وداع قائلا: "سأحضر بعد أسبوع، الله معك".

عاشت "عيشة" زوجة الشيخ كأميرة فى بيت أبيها بقرية "الأبعادية" القريبة من قرية "الخضر"، حين خطبها الشيخ فرح الأهل ودخلت البهجة قلبها؛ لأنها ستنام بحضن رجل، كانت أمها سعيدة بزواجها لتخفف الحمل عن الأسرة، يعلم أبوها رغم الفرحة بأن الشيخ رجل بخيل ، فطلب من "عيشة" أن تتحمل الأيام ، ونصحها بعبادة الزوج بعد الرب، وقال: "هذا فرض الله يا عيشة".

لم تكن قد بلغت عامها العشرين، فدخلت فى قلب الشيخ لنضارتها، لكن قسوته وحبه للمال والسطوة جعلها أسيرة للمنزل وتربية طفلهما الوحيد "محمود".

رحبت بحضورى، وأحضرت زجاجة بيبسى وحلفت بأغلظ الأيمان لأشربها، وقالت: "الشيخ قالي انك هتعيش معانا أسبوع وإحنا كلنا خدامينك"، كانت منكسرة حزينة، رغم ملامح الفرح التى انتابتها نتيجة زيارة ضيف غريب سيحل على منزل مجاور لبيتها، نادت على ابنها وقالت: "اذهب لأبيك بالجامع يا محمود، قل له الأستاذ وصل".

نظر الولد بدهشة وقال: "اسمك إيه"، أخذته بحضنى وقلت: "حمدى"، جرى من أمامى ضاحكًا، وظل يردد ناحيتى: "حمدى حضر يا شيخ".

تركتنى ورائحة بهجتها تملئ الحجرة، وقبل أن أشرب البيبسى كان الشيخ يقف فوق رأسى، احتضننى وقال: "تتغدى الأول وبعدين تروح على السكن"، اعتذرت قائلا: "عايز أريح شوية"، حمل الحقيبة رغم رفضى وسار أمامى، فتح باب المنزل الملاصق لمنزله، وأدخل الحقيبة وقال: "كل شىء متوفر، إنه منزل أختى، غادرته منذ سنوات، تعيش مع أبنائها فى قريتنا الأم، إذا احتجت لشىء اتصل بى ستجدنى "، قلت : "سنبدأ العمل غدًا، أريد الآن أن أنام "، استأذننى وترك مفتاح الباب على التليفزيون وخرج، كنت سعيدًا بوجودى بمنزل وحيد وسط الصحراء.

أعدت ترتيب الحجرة، وفتحت الدولاب ووضعت ملابسى بانتظام، خرجت للصالة، فتحت الشبابيك، وجلست على كنبة الأنتريه أحاول إبعاد منظر الضابط "دسوقى" وابنتى ، شعرت بالامتنان بقبولى العمل بالمركز.

كنت سعيدًا بحياتى التى تجددت، لم يكن يهم أننى سأكتب مقالات أو تقارير ينشرها المركز أو يرسلها للأجهزة، لا يهم كل ذلك ، المهم أننى سأعيش وسط البشر أسمع أصواتهم، وأحس بأفراحهم وأحزانهم.

عاد منظر المرأة المتبرجة التى تدللت على السائق منذ دقائق لذهنى، أرعبها وجودي فعادت مسرعة لدكانها كأن عقربًا لدغها، ماذا اكتشفت بوجهي حتى تهرب ؟ لم أكن أتصور وجهى بهذه القسوة إلا يوم وفاة والدى، عدت من الجامعة ووجدته يئنُّ من الألم، قال بحب: "قرب علىَّ يا حمدى، أعطنى الدواء"، فتحت العلب الأربع، وأخرجت حبة من كل علبة، ووضعتها فى فمه مرة واحدة، أخذنى بحضنه وقال: "كنت أتمنى أن تعيشوا أفضل من ذلك، لكنها الحياة والرزق المقسوم"، لم أرد، فاستكمل : "لم آخذكم لشواطئ المصايف أو الحدائق مثل باقى الخلق"، لم ينطق لسانى، بكى وشدَّنى لحضنه، وقال: "أى قسوة امتلأ بها قلبك يا ولدى؟!"

هل كانت تعاشرنى زوجتى بهذا الوجه المرعب قبل طلاقها؟ كيف تحملتنى عشرين عامًا، ولم تصدر صوتًا واحدًا يعبر عن يأسها ؟! كيف تمكنت فى النهاية من قولها: لا أرغب فى رؤية وجهك ؟!

هربت "عدولة" حين رمقتنى، وتغيرت ملامحها كأنها اكتشفت سر جحودى، هربت ووصفت من بعيد بيت الشيخ لكن عينيها المملوءتين عذوبة لاتزالان بروحى.

"عزيزة"

صحوت من نومى بعد ليلة طويلة لم أتذكر من أحلامها شيئًا، كتبت على ورقة بيضاء: "كيف خذلك الصباح أيها الطير المجنَّح؟ كيف خدعك الليل وقبلت عروضهم؟ كيف خدعك الضابط حين قال: سنفتح الدنيا أمام عينيك بشرط أن تكتب عن رائحة ولون العيون؟ اكشف انطباعات الناس بحياد ، لتدلل على العشق فى أعماقهم وقبولهم مصيرهم برضا ، اكتب خبرتك وسجلها فى مقالات أو مقابلات تليفزيونية أو بحكايات طويلة بتليفونك، اكتب ولا تهتم بتوصيل المعلومات ، فنحن نقرأ الهواء، لا تخف سوف نحسك، المهم أن تكشف خبايا "جبر الرضا".

قلت لنفسى: "إرادة القدر جعلتنى أقابل الدكتور عبد العال لينتشلنى من الموت للعمل فى هذا المشروع الضخم، الذى أعادنى من جديد لحياة البشر "، كتبت بخط عريض اسم المشروع "جبر الرضا"، رسمت حوله النجوم والخطوط المتقاطعة فظهرت كلمة "الرضا" مبهجة والنجوم تحيطها من كل اتجاه، لكن الدق الرقيق على باب المنزل أعادنى للخضر، وجدت الشيخ "موسى" يحمل صينية مملوءة بالخبز والزبد والعسل، قائلاً فى انكسار: "افطر براحتك، وبعدين اتصل لأحضر لك بالحالات، إنهم أبناء الولاء الصابرين"، أغلقت الباب وراءه، وقلت: "نصف ساعة وسأكون جاهزًا لاستقبالكم".

دخل الشيخ "موسى" وفى صحبته "أمين" محصل الضرائب الحكومية، و"عثمان" مسؤول الجمعية، استغربت من ارتدائهما جلبابًا أزرق موحدًا وكأنهما توأم، قلت لأداعبهما: "تشرفنا، ولكن هل أنتما إخوة؟" رد الشيخ "موسى": "أكثر من الإخوة يا باشا"، أشار على "عثمان"وقال : "يعرف كل خبايا الجمعيات، هو الذى يوزع العطايا على الأهالى، المسؤول عن متابعة تنظيف المياه وملء محول الكهرباء بالجاز، الناس كلها تثق به، الصامت دائمًا"، قلت: "خادم القوم سيدهم".

استدار بوجهه على "أمين"، وقال: "إنه الأمين على أموال الدولة، يعرف الأقساط الآجلة والعاجلة على الفلاحين، دائمًا يلتمس للجميع الأعذار، ليدفعوا حسب قدرتهم على الادخار، "أمين" هو المسؤول عن فرع بنك القرية، هو الذى يوزع ويجنى ولا نعرف كيف يتمكن من جمع هذه الأموال وإرسالها للبنك الرئيسى دون أن يخطئ طوال عشرين عامًا، ورغم أن أهالى القرية مهددون جميعًا بالحبس؛ بسبب تعثرهم فى سداد أقساط الأرض ، لكن الأمين يحافظ دائمًا على ألا يأتى مخبر ويشد فلاحًا من رقبته فى عز الضهر؛ خوفًا من إذلاله أمام الناس"، قال الأمين بصوت مسموع: "يكفى ما يعانيه الناس من مآسٍ".

أطلق شخص همجى صوتًا غريبًا وهو ينادى على الشيخ ليسمح له بالدخول، وقبل أن ينطق الشيخ فوجئت به أمامى كشبح، قدَّمه "موسى" وقال: "الأستاذ رشاد أمين الشرطة، عين السلطة الحارسة، القابض على الأمور واللصوص والأرواح، شريكنا الحقيقى لم يتعامل قط كرمز للحكم، يناقشنا قبل تنفيذ أى خطة للسطو على العاجزين عن دفع أقساط الأرض أو قروض البنك، لم يبخل علينا بالنصيحة، إنه أملنا فى الأمان الذى ننعم به فى الخضر".

رد "رشاد" على استحياء بعد ابتسامى فى وجهه: "إنها ضريبة الولاء المفروضة على الجميع، الباشا يعلم كل الخبايا والأسرار التى تمكننا من السيطرة ومن حكم الجهلاء، إنها الشبكة التى تربطنا ببعضنا البعض لننعم فى المسؤولية"، صرخت امرأة من أمام الباب: "الساقية بتدور

على الفاضى والمليان، وأنت يا غلبان مسيرك فى يوم هتبان"، قام "موسى" من وسطنا وطردها بعيدًا وعاد قائلاً: "التسول طال قريتنا، أملنا فى ربنا وحضرتك كبير ".

العصر قارب على الأذان، فاستأذنوا الأربعة وغادروا ، أحسست بالراحة ، لم ينتابنى هذا الإحساس منذ زمنٍ بعيد، دخلت الحمام، قلت فى نفسى: "إنه بالفعل بيت الراحة".

لكن صوت المرأة العجوز الذى عدَّد منذ دقائق كان يزعجنى، أعاد صوتها مشهد المرأة التى عايرت "هنية" بأن زوجها طفشان، يومها قالت "هنية": "اخص عليكِ يا عزيزة، بتعايرينى بشيل الحمل الثقيل بدل ما تواسينى يا ختى".

بكت "عزيزة" بسرعة، وفجَّرت حنانها لتضعه فى حضن "هنية" وقالت: "ينقطع لسانى ياختى مكنش قصدى"، لم أتمالك نفسى فى تلك اللحظة فتذكرت أمى وهى تبكى فى صمت من قهر أبى، حين كان لا يرد سلامها صباحًا كأنه يعايرها بأنها نصف إنسان، أعادت "عزيزة" فى براءة مشهد قوة "هنية" بفخر، أخذتها فى حضنها لتملأ مجرى الظلام بالنور، لكننى لم أتمكن من احتضان أمى، لأخفف ظلم الرجل المتعالى على شريكة حياته.

"حمدة"

قمت بعد مغادرة الشيخ وأعوانه، أحاول استرجاع عقلى الذى دار كشريط الفيديو ليعرض الجلسة الأخيرة بالجمعية الروحية التى عقدت فى السبت الأخير من الشهر الفائت، وحان موعد انعقادها الليلة.

اتصلت بالسائق، وقلت له: "يجب أن تعود للقرية، سأبيت بالقاهرة الليلة"، رغم تردده وتذمره فإنه لم يكن باستطاعته أن يرفض طلبى، أعادتنى حكايات "رشاد" و"أمين"، و"عثمان" و"موسى" إلى جمعهم الرتيب، لم أكن أدرى كيف سأبدأ كتابة تقريرى الذى يحكى عن قرية نائية بحكاية للسلطة الحارسة، ومياه الصرف تملأ الشوارع وتختلط بمياه الشرب ومحطة الكهرباء المعطلة، حينما قرروا الرحيل أعادتنى ألوان البيوت البيضاء المائلة للسواد، والطقس الخانق إلى الوحشة، أغلقت الباب والشباك لأنعم بالوحدة .

تذكرت الحفلة الروحية التى نحكى فيها أهم أحلامنا، اختارونى بالإجماع ليستكملوا مجلس الرواد العشرة، لم أدرِ أية صدفة غريبة أدت لالتحاقى بهذه الجمعية، وأصبحت من روادها، أخذتنى قدمى فى اليومَ الذى طلقت فيه زوجتى لمقر الجمعية، لأدون استمارة العضوية، أتذكر أن الدكتور "عبد العال" هو من اقترح علىَّ فى وقتٍ سابق الالتحاق بالجمعية للتعرف على أسرار البشر.

لا أدرى متى عاد السائق، ومتى ركبت، وكيف نمت فى رحلة العودة حتى وصلت إلى مقر الجمعية فى الساعة المحددة، كنت مبتهجًا وكان غاضبًا قلت: "يجب أن تأتى صباحًا لتنقلنى للخضر، سوف أنتظرك".

كانوا جميعًا هناك، دخلت مسرعًا نحو الظلام، لأسمع الحلم الأول الذى حكاه أحد الرواد ، جلس وسطنا نحن التسعة على الأرض فى الظلام، وقال وصوته يقطع الصمت ليعيدنا إلى موته: "امبارح كنت راجع من مدينة الإسكندرية، فوجئت بنفسى وسط حقول واسعة مزروعة بالبرسيم والفول الحراتى، كانت أمى تنادينى لأمنع تدفق المياه ؛ لأن أراضى الناس غرقت فى الوحل، عند اقترابى من الساقية فوجئت بهم يخرجون من كوم الحطب ويحيطون بى.

لا تزيد أعمارهم على عشرين عامًا، نسخة واحدة فى الملامح وشعاع العيون، وطاقية الرأس السوداء ، بالرغم من أنهم ملائكة، فإن بشرتهم كانت مائلة للسمرة، كانوا عرايا بالرغم من أن السواد قد غطى على عوراتهم، ظهرت صدورهم ناعمة وهم يتلمَّسون أجساد بعضهم، اقشعر بدنى حين وجدتهم حولى يمسكون رماحًا غريبة، كانوا يطيرون للسماء ويعودون للأرض ويتراقصون حولى، قلت لهم: "لا تقتلونى إننى عائد من الإسكندرية بناءً على طلب أمى"، قالوا: "أنت جنى وسوف نقتلك"، قلت لهم: "إننى بشر"، وأخرجت بطاقتى لأريهم مركز الشرطة التابع له سكنى، قالوا: "أنت جنى، فار من معركة الغيلان والملائكة التى اندلعت قبل خلق البشر، سوف نحتجزك ليعلم البشر قدرة الخالق على خلق جنون زرق أشرار"، قلت : "ممكن أحولكم لبشر، ولكن ارفعوا عن عين الثور الغمة، لتقف الساقية وتزدهر أراضينا"، قالوا: "أنت جنى بن جنى، وكلامك كله كذب".

أخذونى لبيت غريب كله حجرات ضيقة، تتوسطه شجرة جفت أوراقها، وقالوا: "نم هنا وحدك"، طاروا فوقى بعد أن أحكموا غلق الباب، حاولت تذكر مشهد عودتى من الإسكندرية أو

صوت أمى أو خرير مياه البحر، أو لون السماء، عمَّ الظلام على كل شىء بالمنزل ولم أصحُ حتى الآن من النوم، ومازال الظلام الدامس يحيط بى.

أيقظه أحد الرواد العشرة، وقال: "أنت تعيش فى كنف إبليس"، كان الرائد الذى حكى الليلة هو الفنان "يوسف" صاحب معرض "زاد الكريم" الشهير بمدينة الفيوم، كانت صوره تدهش الأمريكيين والفرنسيين، لدرجة أنهم شاركوه ليبنى فندقًا بجوار قرية الفنانين ، والتى اشتهرت باسم "تونس" كعلامة على توطيد العلاقات المشتركة بين شعوب شمال أفريقيا!!

جاء الدور على "فرنسو" الذى يتحدث العربية بطلاقة، توطدت علاقتى به بعد زياراتى ولقاءاتى بمجموعة الرواد بالجمعية بالاجتماع المنعقد آخر يوم سبت بالشهر، أصبحنا أصدقاء، تعرف على مشاكلى مع زوجتى، ونصحنى بالانفصال لأريح صوتى كل يوم من السب، وإغلاق منابع الشر داخل روح زوجتى بفراقها.

كانت آراء الخواجة صادقة، عملت بنصائحه وأصبحت وحيدًا، جلس "فرنسو" وسطنا بعد أن شربنا جميعًا نخب الأحلام، أطفأنا النور وعمَّ الظلام من جديد، فقال: "بالأمس كنت أمر من الشارع الذى كان يحيط بمنزلنا بولاية "وسكنسن" التى عشت فيها طفولتى، شاهدت ثلاثة شباب ينتشر السواد ببشرتهم، يمارسون الجنس مع بعضهم بشكلٍ جماعى، كان قضيب أحدهم ناعمًا وطويلاً، وقفت مستمتعًا بوضع القضيب بمؤخرة أصغرهم سنًا، كان الثالث يلحس ظهر الفحل صاحب القضيب الجميل، ويضع أصابعه فى مؤخرته فينتصب عن آخره، ويصرخ الثلاثة من النشوة.

اقتربت منهم، حين شاهدونى الثلاثة تحسسوا بشرتى البيضاء، تفتحت شرايين شرجى، تحسس أكبرهم مؤخرتى برفق، وقال أصغرهم ، إننى بكر ، اتركوه لى ، أخذنى أكبرهم فى حضنه وتحسَّس مؤخرتى برقة، قام الشخص الثالث بملامسة فتحة شرجى بقضيبه، كدت أنفجر من النشوة، امتطانى لمدة ساعتين وأنا أصرخ وهم يلحسون جسدى كأنهم يباركوننى.

فجأة وجدت نفسى ملقى وحيدًا بالشارع أمام أحد البيوت، كان هناك شباب عرايا يمسكون السواطير، ويجرون وراء بعضهم بالشارع، ثم يقفون فجأة ويشرطون أجساد بعضهم بأمواس أخرجوها بحرفة من تحت ألسنتهم، ثم يجرون خلف بعضهم، ويعيدون تقطيع أجسادهم الغارقة بالدماء.

ضحكوا وابتهجوا وهم يتذوقون دماءهم البشرية، اقتربوا منى وعاصوا أيديهم فى دمائهم، وفتحوا فمى برفق لأتذوق طعمه، كان شبيهًا بطعم الفراولة، أحببت مذاقه، ولا أستطيع نسيانه.

وجدت نفسى بجوار امرأة تعنفنى، وتطالبنى بمغادرة الولاية؛ لأن رائحة مؤخرتى تزعجها أثناء نومها، قلت لها: "أنا زوجك، ولا يمكن أن أعيش دون معاشرة الصبية السود"، صرخت فى وجهى، وهددتنى بإطلاق النور فى وجهى.

كان النهار قد قارب على الطلوع فأيقظناه من نومه؛ لنعيد له ذاكرة الموتى ويظل معنا، كان يبكى بحرقةٍ أحزنتنى، أخذه "يوسف" بحضنه وطبطب علي جسده.

جاء الدور على صاحبة العلم والمركز المرموق، التى تعمل بالجامعة الأمريكية كخبيرة، الجميع كان متأثرًا بأحلام "يوسف" و"فرنسو"، فاقترح أحد الرواد تأجيل باقى الأحلام للجلسة القادمة وتفرغنا لتحليل انطباعات الرواد، لندعم تقدم علم الأرواح فى تجاوز الشرور البشرية.

عنفنى وجه المرأة العجوز بالخضر التى قالت: "أين أنتم ونحن ننتظر الموت يطير من حولنا؟" عرفت يومها أن اسمها "حمدة"، يزيد عمرها على مائة عام، ومع ذلك تزرع قطعة الأرض التى تسلمتها من الحكومة بنفسها، تستمتع بحصاد القمح والتشاور مع الفلاحين حول دورة الرى، كانت "حمدة" ملاك الخضر الطيب وروحها العطرة، خلبت عقلى ، ولا أدرى كيف أطرد صورتها بعيدًا.

بعد انتهاء اجتماع الرواد، كانت تنادينى لأعود للخضر، بكت لتركى منزلى، توسلت لأعود مطلقًا أحلامهم، قالت: "إن الواقع يمتلئ بقصص أروع من الأساطير".

حين سألتها: "كيف تعيش وحيدة بعد وفاة زوجها وأولادها؟" قالت ساخرة: "جبر الرضا سر قبولك بمصيرك".

"سيد الصعيدى"

أذهلنى السائق الذى يرافقنى طوال رحلة الفيوم بانضباطه، علَّمه عمله مع الأجانب بأن للوقت قيمة كبيرة، كنت أتمنى أن يغيب اليوم، لأذهب للنوم بعد الليلة الطويلة التى جمعت الرواد العشرة للجمعية، على خلاف أمنياتى، جاءنى صوته فى التليفون مرددًا تذمره وانتظاره أسفل المبنى، أعاد صوته الهمة والنشاط، وعدت للحياة، نزلت الدرج متباطئًا، حين شاهدت وجهه تذكرت وجه الضابط الصارم بمبنى الأجهزة.

قلت لنفسى: " سأكتب انطباعاتى وليحدث ما يحدث"، فتحت باب السيارة وقررت التعرف على قرية الخضر من آخرين خلاف "موسى" وأتباعه.

أيقظنى السائق أمام باب منزلى بالقرية، وقال: "يا أستاذ وصلنا"، كنت مبتهجًا، لا أعرف كيف مر الزمن خلال هذه المدة لأعيش فى أحلام لم أكن أتوقعها، فقد حلمت بطائرات كثيرة تحيط بى، وتطالبنى بالرحيل عن القرية وإيقاف كتابة التقارير ، وحذرنى أحد الطيارين من خطورة الطقس وحرق عينى.

كان كل هذا علامة على صحة طريقى الذى اختاره القدر، رغم أنف الأجهزة التى كانت ترغب بذلِّى وتوظيفى كمرشد ، لكن القدر وحده هو من أنقذنى ، قلت للسائق: "تعبتك معى"، لم يرد، وقال: " عايز حاجة قبل ما أمشى"، قلت : "هشوفك بعد خمسة أيام"، تركنى مطمئنًا موقنًا بأننى لن أتصل به!

وقفت بالشارع أمام باب منزلى، شاهدت المرأة صاحبة الدكان تراقب خطواتى، كانت نظراتها هذه المرة حنونة، اخترقت مشاعرى الهواء، ودخلت فى قلبها، فتدفأ وبادلتنى الشعور، لوَّحت بيدى من بعيد فبادلتنى التحية، دخلت مغتبطًا لنجاحى فى أول اختراق للقرية بعيدًا عن الشيخ .

لم يحس بحضورى رغم أن منزله يجاورنى، سمعت صوته كأنه بخطبة الجمعة الأخيرة ، جلست أستمتع على خطبة الشيخ، كان يحكى عن معارك وقعت بين المولى عز وجل، وبين الشياطين وممالك الجن الذين أفسدوا الأرض فى هذا الزمان، فتقدم الرب على رأس جيش كبير من الملائكة، وقاتلهم ونفاهم لجزر البحار البعيدة، قال الشيخ: "إن آدم خُلِقَ من روح الله، لكن حواء خلقت من ضلع آدم الحى، لذلك فإنها أقرب للحية، وهى التى وشت بآدم عند الرب بعد أن خدعته، وهزت له جزع النخلة ليتذوق العسل"، كاد الفضول يقتلنى فتسلقت جدران المنزل لأشاهد بنفسى الشيخ "موسى" وهو يتوسط وسعاية منزله الكبيرة، ويقف على منبر مسجد يخطب فى البراح المحيط بخياله.

اختفيت قليلاً لأسمعه وهو يستكمل: "يا مسلمين يا موحدين، قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، الجنه امل الجميع تقع بين الأرض والسماء لأن السماء بيت الرب، والأرض بيت الإنسان، والجنة بين الرب والإنسان تنمو ثمارها لإزالة الخطيئة".

صمت برهة واستكمل : "نعم يا أبنائى ، إن حواء أكلت من شجرة الجميز قبل آدم، واستمتعت بالشر بعد أن أغوتها الحية، هذه الشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ولا يقطعها، وتقع بين مكة والمدينة، لكن جذرها فى أرض مصر المحروسة".

ضحك وقال للمصلين الواهمين: "نعم جامع آدم حواء، وكان جبريل شاهدًا عليهما ، وبعد أن استمتع آدم بحواء سأله الملاك المتلصص: كيف حالها؟ قال آدم برجولة هزت عرش السماوات: "كانت شريفة قبل فض غشاء بكارتها، فقال جبريل : أنت الآن بين العشاء والفجر، واليوم يسُمَّى الخميس" ، وضحك الشيخ عن آخره، وقال بحياء: "نعم يوم الخميس يهتز العرش بسبب الأسرة!"

رفعت رأسى لأتأكد من أنه يحدث نفسه، كان يلبس قفطانًا أبيض، ويمسك سبحة كبيرة بيديه، وقال: "فى نهاية كل خطبة أبلغكم بجزء من السر، واليوم سوف أكشف لكم بعض حروفه ، فخلال الماضى السحيق وعلى مدار السنين حاول الأخيار أن يبشروا بالرسالة لوقف الظلم، لكن أمنا الغولة وأبناءها وقفوا فى وجه الأنبياء، ليمنعوا الجميع من معرفة صاحب الرسالة أو شعب الله المختار، يا أبنائى لا يهم كل ذلك، المهم هو فحوى الرسالة، رغم أن الأخيار على مدار العمر قاموا بمحاولات لكشف مضمونها، وضحوا بحياة المئات منهم، لكن الرأى الغالب فى الفقه أن أحدًا لم يعرف المصير الذى ستؤول إليه البشرية، ثم دعا ربه، وقال: "رددوا ورائى آمين"، ونزل من على المنبر ووضع سبحته أمامه، وأتم الصلاة كأنه بمسجد الحسين ليلة القدر.

نزلت من على سطح البيت، وخرجت للشارع ، توقفت أمام باب منزله وناديت بأعلى صوتى: "يا شيخ موسى"، خرج مفزوعًا غير متوقع وجودى اليوم: "أهلاً وسهلاً، اتفضل يا أستاذ".

لم يخشَ ظهوره أمامى بكامل ثياب الإمامة، وقال: "يا أستاذ لو بدرت شوية كنت عشت معى أحلى أحلامى"، قلت: "ما هى؟" قال: "أبقى الإمام الكبير لجموع المسلمين، وأهديهم لطريق الله"، قلت: "أنت تستحقها يا شيخ ".

قلت مغادرًا منزله: "لا تشغل بالك بوجودى ، فأنا سأعتمد على نفسى بالقرية"، حاول أن يثنينى عن رأيى وقال: "الناس مش كويسة خلينا دليلك"، أفهمته أن هذا طلب الأجهزة فخرس، قال: "إيه المطلوب منى؟" قلت: "أن تتركنى لحال سبيلى، أتفحص بنفسى الاوضاع"، لم يفهم مقصدى لكنه قال: "أوامرك يا بيه".

دق بابى بعد العشاء، ففتحته وسألت الرجل المتجهم أمامى: " أنت مين؟ " كان وجهه ودودًا، وقال بأدب: "أنا سيد الصعيدى والست حمدة وضاحى يطلبان مقابلتك غدًا"، قلت: "لماذا؟" قال: "لنستكمل حديثنا وتفى بوعدك"، قلت: "فكرنى بيهم ، فرد قائلاً: " أنا أبو شرف الشاب الذى سألك فى أول لقاء بأن تفعل لنا شيئًا لنحيا كبشر".

لم يشب صوته القوى أى اهتزاز، كان واثقًا بنفسه، احتضننى وقال: "نحن نثق بك، ونضع أملنا فى الله وفيك، إن خدام القرية يعلمون أنك ملاك طاهر فلا تخذلنا"، قلت بغرابة: "أنتم أصل البلاد "، قال: "إن الخضر يرتع بها اللصوص سارقو الخبز، وإن وجودك كفيل برجوع الحق".

نظرت فى عينه، كانت تشع رضا، تناثر شعره الأبيض على وجهه ، وأدخل الطمأنينة لقلبى، فقلت: "من هم الخدام؟" قال: "سوف ننتظرك فى الغد"، أغلقت الباب ونمت على غير العادة بعمق، صحوت فى اليوم التالى ولم أتذكر أحلامى، أحسست بأننى فقدت أشياء كثيرة، رغم أننى أحتفظ بذاكرتى.

"شمس"

لبست جلبابًا أبيض ومداسًا لأتشبه بالفلاحين، سرت وحدى بشوارع القرية الخالية بعد صلاة العصر، كانت وجوه الأطفال والنساء والرجال الشاحبة الذين قابلتهم تدل على أنهم جُلبوا من بلاد مختلفة، أظهرت بشرتهم ولهجتهم، ولون عيونهم وشكل أنوفهم، وإشارات اليد ونوع الشعر، والطول والعرض، وعرض الجبين صحة المعلومات التى زودنى بها المركز بأنهم الذين قاوموا السلطات حين أجبرتهم على ترك أراضيهم لكبار الملاك، رشتهم بهذه الأراضى والبيوت التى أقرب ما تكون لمنفى اختيارى ، وعلى الرغم من وجود مستشفى ومدرسة، ونادٍ اجتماعى ومقر لجمعية أهلية، فإن أبوابها وشبابيكها المغلقة المملوءة بالأتربة تدلل بلا شك على حجم الغش الذى لاقاه هؤلاء البشر.

الجامع هو المكان الوحيد الذى تتوحد تحت سمائه تلك الخلطة البشرية العجيبة لبشرٍ من كل لون وصنف، والذين جُلبوا من أراضيهم وقراهم القديمة، وأُجبروا على تركها والعيش هنا، لا يملكون إلا جهدهم وذكريات طفولتهم، لا يعرفون شيئًا عن التقدم المذهل لعلم التواصل الإنسانى والفضاء المعلوماتى، أُجبروا على إنجاز مشروع إنسانى تحت عنوان "جبر الرضا"، وتم تسليمهم هذه الأراضى البور والمساكن الموحشة التى تشبه المقابر؛ ليقوموا بأدوارهم خلال فترة المشروع.

يعلم مصممو القرية المصريون والأجانب الذين قرروا إنجاز المشروع أن التجربة يمكن أن يصيبها الفشل، ويموت الناس بسبب المرض والعزلة، لكن النتائج المدهشة جعلتهم يضحون بنحو عشرة آلاف منهم، ليجردوهم من ماضيهم ويلقوهم فى الصحراء، ليتعرفوا على مدى قوتهم فى تحدى الظروف البشعة لإنتاج الرضا جبرًا.

على الرغم من المقابلات العديدة التى أجريتها بتلقائية لمن قابلتهم من الرجال والنساء خلال فترة إقامتى بالخضر، فإننى كنت أحاول فهم المحطات الأساسية فى حياتهم التى جعلتهم يقبلون عرض الحكومة المخادع.

وضعهم مصممو المشروع فى خناق مع الحياة، فأراضيهم ومساكنهم سلبت منهم ودخلهم البسيط تسرقه الحكومة الجديدة بطريقة الحية والحيلة، ودعاوى الحرية وقوة النظام وشفافيته عن طريق الشيخ وأتباعه، وتتركهم فى مواجهة الحزن والمرض؛ لترى ماذا سيفعلون، فتحت لهم طريق الوحشة والخديعة ليأتوا بأطفالهم ونسائهم، ويعيشون ببيوت معزولة، وتأخذ عن طريق العصابة ناتج العمل ليعيدوهم كل يوم فى الدوران بالساقية، لكشف سر مقاومتهم.

مرة ثانية أعاد لى الصراع على أرغفة الخبز التى أعلنت فضيحته "هنية" أول يوم نزلتُ فيه القرية بضيافة الشيخ ، الأسى فى قلبى، كنت أقول لنفسى: "ما الذى يدفعهم إلى تحمُّل كل هذه القسوة؟" لكن الدولة الجديدة عن طريق رجالها الطامعين فى المجد تبنى جسورًا وتصدر التعليمات، وترص جثثهم فوق بعضها، لتمر سياراتهم تستحلب الإنتاج من أجسادهم المتهالكة، وتقتل رغباتهم.

بحثت داخل قلوب الحالات التى قابلتها عن كيفية تركهم لمشاعرهم تتجمد، فأصبحوا لا يحسون النعيم إلا بحصولهم على أرغفة الخبز وحصص الدقيق والأسمدة، أو حين يمنُّ "الأمين"

عليهم، فيرحِّل قسط البنك لآخر الشهر، أو يتغاضى "رشاد" المخبر عن السب الذى صدر من أحدهم ضد جاره.

لكن روح "على أبو شنب" أذهلتنى، فحين يعلم بأن البلدة نامت ينظر إلى النجوم ؛ لأنه يعلم أن الله الذى خلق هذه الدنيا لا يمكن أن ينسى عباده فى الصحراء دون أن يضع لقلوبهم وأجسادهم المجروحة العلاج.

كانت ردود "أبو شنب" الذى لا يعرف إلا لغة الزرع تدل على زهد العاشقين فى نعم الدنيا، كان يقول فى صمت: "عن ماذا يسألنا هذا الأفندى الغريب؟" الدنيا زى الفل والأرض تنبت بذورها والحال مستور، ماذا يمكن أن نفعل أمام الحوائط العالية التى بناها الأشرار لمواجهتنا خلال آلاف السنين؟

لم يُعن هؤلاء الأهالى على التحمل إلا الرضا بالعمل، والنظام والزهد فى المطالبة، راضين بالمقسوم، عشقوا نسمات الهواء وكوب المياه الملوث، والخبز القليل الناشف والجبن الملوء بالدود، اكتشفوا كل هذه النعم ولم يبغوا سواها حتى لو حاولت الدولة خداعهم فلن تتمكن؛ لأنهم يعلمون أن الأفندية لا يأتى من ورائهم خيرٌ أبدًا.
فى آخر مقابلتى اليوم بمنزل "ضاحى" ارتاح لطريقة كلامى، رغم طعنى علنًا عصابة الأربعة بالقرية التى هى يد الأجهزة فى رصد ومص مشاعر الناس، حلف ميت يمين أن آكل من يد زوجته "محمودة"، كانت جميلة وطيبة، قالت بعد إحساسه باحتياجى للحنان: "كُل يا خويا أنت زى حسين أخويا، كُل يا بن الأكابر".

طعم الجبن والخبز أطيب من أى طعام تذوقته ، شاركنا الطعام "على أبو شنب"، صرخ بـ "محمودة" بأن تنادى على زوجته "شمس"، وتحضر عجورة كبيرة لتشقها بعد العشاء.

امتلأت "شمس" زوجته بالحياة والبهجة، أتت وهى تحل ضفائر شعرها، ناداها بابتسامة وحب لتشق العجورة، قال لها مشيرًا على عينى: "الأستاذ واحد مننا يا شمس مش تبع الأوباش"، بادلتنى "شمس" إحساس الأخوة، ووضعتنى بين ضفائر شعرها المحلول، أحسست برائحة أمى تعود من جديد وهى تأخذنى بحضنها الدافئ، بعد أن يضربنى الأب الذى ضاع عمره وسط تعالٍ مفقود، ولم يعد يعرفنا إلا من خلال الأرقام والأماكن والأوقات.

أعادتنى "شمس" إلى رائحة عائلة أمى التى زرتها فى قريتها البعيدة بمحافظة البحيرة فى موسم جمع القطن وهم يتدفأون بأقراص الروث ليلاً، ويستمتعون بعدِّ الأجولة، والنظر بحب لحصاد أراضيهم.

قال "على أبو شنب": "سلمونا الأراضى بورًا، وخلال عشرين عامًا قمنا باستصلاحها، ورغم المياه الملوثة والكهرباء المقطوعة، والمبيد المغشوش أنتجنا أجود أنواع الشعير والخيار"، وقالت "شمس": "إن البيض الذى تنتجه طيورى يجب تسليم نصفه للشيخ والمخبر كضريبة لعدم تحريرهم محاضر تلويث للبيئة؛ لأن تربية الدواجن ممنوعة فى البيوت حتى لا تنتشر إنفلونزا الطيور"، هذا ما قاله الشيخ "موسى"، وأكده "رشاد" قائلاً: "هذا قرار الحكومة!!"

جاءت "هنية" لاجتماعنا آخر الليل، عاتبت "عزيزة" زوجة "سيد الصعيدى" على إهانتها أمام الجامع، ومعايرتها بترك زوجها للعيال والهجرة للمدينة ، أخذتها بحضنها، ربتت

على كتفها، مسحت دموعها، وقالت بحب لـ "هنية": "إحنا كلنا أهلك، مصارين البطن بتتخانق"، وحلفت برحمة أمها الغالية أن تتذوق طعم عجور أختها "شمس".

بدأت حكايات وحكايات عن الأجداد والقرى التى أتوا منها، ونسوا للحظة أرغفة الخبز وأقساط الأرض، ومحاضر المخبر، كان القمر يتوسط السماء والنجوم تتلألأ فى الصحراء، خرج أطفالهم يلعبون وسط البيوت ويصرخون خلف بعضهم البعض، لكن الشيخ وعصابته لم يتركوهم فى حالهم، فقد مر راكبًا حمارته وقال ليقذف بسمومه على الجميع: "ادعوا للسلطات بالنصر يا أهل الخضر".

صمتوا لفترة، ورد "ضاحى": "تعال كُل معانا يا مقدس"، على الرغم من أنه قال: "بالهنا والشفا" بصوت عالٍ ، لكننى سمعتها: "بالسم الهارى يا ولاد الكلب"، كانت عيونه تشع شرًا، الجميع صمت للحظة، ثم انفجروا بالضحك.

"على أبو شنب"

وقفت على باب دكان "عدولة" أطلب منها علبة سجائر، فقالت ساخرة: "لا يشترى الأفندية الأغراب شيئًا من القرية، يأتون باحتياجاتهم من مصر"، قلت: "لم أتوقع أن تخلبني قريتكم، مكثت فيها دون إرادتي"، قالت: "الناس كلها معجبة بطيبتك، هل أنت مبعوث العناية الإلهية؟" قلت بسخرية: "إنني مبعوث السلطات، لكني لست منهم، أنا أكتب عن الخلل بين الأهالي والأجهزة".

كانت رقيقة وهي تسألني عن حالي ورأيي في أهل القرية، وتقول: "لا تسخر منا، إحنا ناس على أد حالنا، اكتب عنا كويس ، إحنا غلابة، لامست يداها يدي وهي تعطيني علبة السجائر ، فتكهربت روحي".

قالت: "عايزة أتكلم معاك شوية؛ لأنك فهمت الظاهر اللي بين الناس، متعرفش إيه اللي بيجري جوه البيوت".

أعلن الجامع موعد صلاة العصر ، صوت الطفل الذي يؤذن غريب، ينغم الجمل، يطول الحروف بخللٍ واضح لدرجة أنها قالت: "لا تأخذ في بالك تلقيه ابن حد من العصابة"، قلت : "أنا مسافر النهاردة"، قالت: "خسارة كنت أتعشم في الجلوس معاك الليلة"، نظرت إليَّ كأنثى ، وفتنتني ، ونظرت دون وعيّ لجلبابها الخفيفً الأبيض الذي يظهر مفاتن جسدها، وفوجئت بنفسي أقول: " سوف آتيك بعد العشاء لأسمع الباطن".

اتصلت بالسائق ليعود للقاهرة؛ لأن طبيعة العمل أجبرتني على الانتظار، تذمَّر دون أن ينطق، وقال بصرامة: "عايزني امتى؟" قلت : "صباح الغد"، وأغلقت الهاتف.

عند سيري بشوارع القرية يناديني الأطفال باسمي، والنساء تضحك في وجهي، كان صباحًا غريبًا، بعد أن قابلت "عدولة" شاهدتني "زوبة" زوجة "رشاد" المخبر، وصرخت لتحذرني: "عدولة مش سهلة وكدابة"، كنت أعلم أنها زوجة المخبر لأنها أصرت بالأمس على العشاء بمنزله، لكنني اعتذرت بأدب.

قبل وصولي إلى المنزل سمعت صراخ نساء حول دكان "عدولة"، ظهر عدد من النساء والأطفال والشباب من بعيد يجرونها على الأرض وهي تقاوم، وفجأة فرت من بين أيديهم، وأحضرت سكينًا وطاردتهم جميعًا، وقالت مهددة الجميع: "يا بلد يا وسخة، شوفوا الحرامية والنصابين قبل ما تتشطروا على مرة غلبانة"، قالت كلامًا كثيرًا عن اللصوص والمجرمين، والسماد وأقساط الأرض، وثمن المحصول والأجهزة، و"أمين" و"عثمان"، والشيخ والمخبر، سبَّت كل هؤلاء ولم تخف ، وضعت البلدة كلها في سلة البيض الممشش، وأظهرت رائحتهم النتنة لترهبهم.

إنها البرهان على العجن الخاطئ لخلطة الخضر التي وضعها مصممو مشروع "جبر الرضا"، استهدفوا إنتاج نموذج للحضارة تم وضعه قبل إنشاء قرية وسط الصحراء وجلب عشرة آلاف مواطن؛ ليعيشوا في قبور سموها "منازل"، حرموهم بحيلة متع الحياة ليعيدوا إنتاج خلطة نظامهم، كانوا يتوقعون مع استمرار الضغط على مشاعر وروح الأهالي أن تنفجر الناس، معلنة نموذج الرضا بالمصير كتعبير عن شعار "جبر الرضا"، الذي يمكن تطبيقه على باقي البشرية في العصر الحديث.

كان صديقى "فرنسو" محقًّا حين علم بعملى الجديد قال: "إن نتائج بحثك ستذهل العالم"، وطلب منى إحاطته علمًا بنتائج مقابلاتى وزيارتى؛ لأنه يرغب فى دعم هؤلاء البشر.

قال "فرنسو" الذى شارك فى وضع تصور القرية الأول: "إننا نؤمن بقدرة هؤلاء البشر على تجاوز الشر والغل، والكره والظلم لإيمانهم بالتسامح والتعدد، والقبول بالمصير المشترك، فوضعنا تصورًا أوليًا لجلب الفلاحين، وتسليمهم البيوت والأراضى، وقمنا بإطلاق السلطات المحلية عليهم لمعرفة أى نموذج يمكن أن تنتجه هذه الخلطة.

قلت له فى آخر مقابلة بيننا بالجمعية : "إن الأساطير والماضى لم ترق بكل خروقاتها فى تمثيل الشر، والوصول به إلى هذا المدى من الفجر"، قال: "إن البشرية يجب أن تدفع ثمن نهوضها".

بعد عدة أيام عشتها كمواطن مع أهالى القرية، وجدتهم يفهمون مغزى الحجز الإجبارى فى الصحراء، تمسكوا بالإيمان بالطبيعة وعشق النساء والخير، كانوا يطيرون آخر كل نهار ليتجاوزوا حيل العصابة الذين أطلقتهم السلطات؛ ليبيدوا مشاعرهم ويجردوهم من الأمل.

أبدع الناس فى هذه القرية البعيدة عن العمران مشاعر مبنية على الإيمان بالمصير المشترك ، تمكنوا رغم وقوعهم أسرى أقفاص العلماء، واختباراتهم من مطاردة الأشباح والأوهام التى كادت تخرق روحهم، استطاعوا بحرفة إنسانية مبدعة فك القيود والأغلال كل ليلة بمشاركة القمر والنجوم، واكتشاف الكنز الذى تبحث عنه السلطات، والكامن فى أرواحهم المبدعة ، تمكنوا بتلقائية من إزاحة العمى من طريقهم، لكن الشيخ فى آخر مقابلة قال بتلقائية، ونحن نتحدث عن أهل القرية: "عميان القلوب سوف يكشفون عن طريق الخلاص"، سألته بجهل: "كيف سيتم ذلك؟" قال: "إنه سر الوجود الذى أنعم به الله على الناس فى هذه البلاد".

شاهدت ملاكًا أبيض يحاول وقف الأذى بـ "عدولة"، كان وجه "على أبو شنب" يظهر كالقمر وسط الجمع، أمسك عصا رفيعة، وطارد الأطفال وسبهم لوقف الشر، لاحقته "شمس" زوجته الرائعة لتأخذ "عدولة" فى حضنها وتقول : "إحنا كلنا أهلك ياختى، متخافيش من الأوباش"، بكت "عدولة" ، لكن يد "على أبو شنب" الطاهرة وهو يضعها على رأس "عدولة" الباكية كانت كفيلة بإعادة البسمة لوجهها.

قال أمام الجميع: "لن تجرؤ امرأة أو رجل فى هذه القرية على المساس بشعرة من رأسك، أنت أطهر النساء، أختنا التى لم تولد من رحم أمنا، كلنا أهلك، أم أطفالنا، بنت شيوخنا، وتاج رأس الجميع"، ضحكت "عدولة" باكية ورفعت رأسها فى فخر، حضنت بعيونها أخاها "على أبو شنب" الفلاح الذى لا يفهم إلا فى لغة الحرث والزرع والمياه، فرشت حصيرتها أمام الدكان، وأعدت الشاى بالقرنفل الذى يحبه، قالت "شمس"ببراءة: "أنت بركتنا يا عدولة".

"فاتن"

"عدولة" امرأة جميلة فى الأربعين من عمرها، شكَّل وجودها فى هذه البقعة علامة على غرابة مشروع إنشاء القرية، فهى لا تملك أراضى، لكنها اشترت هذا المنزل وفتحت دكانها وعاشت وسط الأهالى، تختفى كل عدة أيام؛ لتشترى بضاعتها من المدينة القريبة أو بادعاء زيارة أهلها، "أى أهل فى الكون يتركون امرأة بدون عائل فى هذه الصحراء، دون أن يزورها أحد منهم خلال عشر سنوات مضت؟" هكذا قالت "زوبة" زوجة "رشاد" المخبر حين سألتها عن "عدولة"، كان دخل الدكان لا يكفى لإعاشة كلب، ومع ذلك كانت "عدولة" تعيش فى بيتها الجميل كأميرة، كان أثاثها نظيفًا ومرتبًا، زرعت خلف المنزل نحو مائة متر بالورد والخضر، لم يعرف أحد فى القرية كيف تتركها عصابة الأربعة تعيش بينهم، ويوفرون الحماية لها رغم أنها الوحيدة التى تسبهم علنًا!

أية معلومات يعرفها الشيخ والمخبر عن هذه المرأة تمنعهم من رد إساءتها، فى صباح اليوم أحسست بأنها تعاطفت معى وقالت مخترقة العادة: "أحتاج الجلوس معك الليلة، لا أعرف لماذا أحس تجاهها بشىء مختلف، فرغم الصحراء لكنها أنثى متفجرة مملوءة حياة، فجرتنى حين لامست يدى ، فعدلت الموعد دون تفكير، وقررت المكوث بالخضر عدة أيام.

بعد انطلاق أذان العشاء ذهبت لدكانها، وجدتها تفرش الحصيرة بالشارع وتضع أمامها بوتاجازًا صغيرًا وصينية مملوءة بأكواب الشاى، ترتدى جلبابًا قصيرًا فضيًا يظهر شعرها الأسود كتاج على رأسها، قالت: "أخيرًا عدت"، قلت: "أعرف عنك الكثير"، قالت: "لا يحتاج المرء الكثير ليعرف الناس، عشر ساعات تحكى عن الأهالى والنساء المبدعات بالقرية"، قالت: "إن فاتن زوجة عثمان على علاقة بشرف بن سيد الصعيدى"، الوحيدة التى تعلم هذه العلاقة وتباركها.

قالت: "إن "فاتن امرأة جميلة حرمها عثمان الحياة بسبب جشعه، ولعبه على كل الحبال ليسرق الخبز والأموال مع باقى العصابة، لا يذهب لمنزله إلا بعد الفجر بعد اجتماعه اليومى مع العصابة، يترك "فاتن" وبناتها فى المنزل دون أمل، يسبها ويقول لها: "أوفر لك كل شىء كأميرة، لكنك امرأة دون".

حين بكت "فاتن" أمامى، وكررت حكايتها أرسلتها لمنزل "سيد الصعيدى" لتأتى بـ "شرف" لدكانى لأخذ حصة السكر، لم يكن يحتاج الأمر كثيرًا، لتوطد "فاتن" مع "شرف" علاقتها ، أعاد لها الحياة، كنت أعرف أنه يهيم بها عشقًا، وبمجرد أن رأته ومشت معه حتى دكانى كان كل شىء قد تم ترتيبه.

قالت: "إن فاتن تملك مفاتيح المرأة الباهرة، كيف لم يعشقها رجال هذه القرية التعساء؟! تذكرت منظر "فاتن" وهى تمر بشوارع القرية تحمل كيس الطماطم وتضحك للجميع، كنت أعتقد أن قوتها ترجع لكونها زوجة أحد رجال العصابة، لكن "عدولة" أكدت أن روحها سوف تضىء الظلام فى الأيام الحالكة، إن روعة قلبها هى التى جعلت "شرف" لا ينام شهورًا متمنيًا رؤيتها.

قالت: "خديجة زوجة أمين جابى الضرائب، ومحصل البنك تقيم علاقة مع رشاد المخبر، الجميع يعلم العلاقة ، لكنَّ أحدًا لا يستطيع فتح فمه؛ لأن المخبر يملك مفاتيح السجن".

حكت كثيرًا عن "زوبة" زوجة المخبر التى قررت العيش كداعرة وسط القرية فى تحدٍّ لقهر المخبر، فبعد أن عاشرته سنوات اكتشفت أن كل الجرائم التى يرتكبها لن يوقفها أحد لأن

روحه مملوءة بالشر، فقررت التعايش وسط ركامه بمعاشرة المجرمين الذين يشربون المخدرات بمنزله.

قالت بأسى: "المرأة هنا تتحايل لتشم نسمة الحياة، الوحشة التى تحيط بنا من كل اتجاه يمكن مقاومتها بتلمُّس رائحة الحب"، واستكملت بعد أن صمتت كثيرًا وصبت كوبًا جديدًا من الشاى "القرية التى تشاهد بيوتها وأراضيها ويعيش فيها هؤلاء الناس ليست هى ما تبحث عنه"، قلت لها: "كيف عرفتِ؟" قالت: "أتشمم رائحتكم"، فرددت مذهولا: "كيف؟" قالت: "كنت أرافق البعثة التى خططت لبناء القرية، وعاشرت منهم الكثير مصريين وأجانب، أحضرونى من إصلاحية بمصر الجديدة، هل تعرف أنى لقيطة؟ وتعلمت كل فنون الحياة وعاشرت مئات البشر وأعرف أسرارهم".

باغتتنى وقالت: "لماذا عدتم للبحث مرة أخرى؟" قلت لها: "أى بحث؟" قالت: "الآثار"، أفجعتنى بساطتها وفوجئت بالسر الذى طلب منى الضابط "دسوقى" ألا أبوح لنفسى به، فكيف تعرفه امرأة فى هذه القرية النائية؟! هل لها علاقة بالأجهزة؟ قلت: "أنت تعرفين الكثير، اكشفى عن نفسك"

قالت: "أنت تعرف أن مكان هذه القرية كان مخبأً لقرية فرعونية يمتلئ بالذهب والتماثيل والبرديات والآثار، عشرات الأطنان من الذهب الخالص والتماثيل الفرعونية كانت تحت ركام هذه البيوت، أنت تعرف أن "قارون" خبأ كل كنوزه هنا، بعد أن أقام سراديب من قصره بقرية قوته حتى وادى الخضر، لم يكتشف أحد طوال التاريخ هذه الكنوز إلا بعد أن تمكن الدكتور "دياب" ابن الأكابر من الاتفاق مع بعض الأجهزة، وممثل لسفارة أجنبية يدعى "فرنسو" وآخرين، لإرسال بعثة لتكتشف نهاية السراديب المتهدمة حتى وصلت إلى الوادى، كان ذلك منذ ثلاثين عامًا، ولأن الكنز مهول فقد قتلوا كل أفراد بعثة التنقيب مصريين وأجانب، وأحضروا الطائرات والمجنزرات، ونقلوا الذهب والتماثيل والبرديات لمكان لم يعرفه أحد، وقرروا إقامة قرية الخضر وجلب هؤلاء الفلاحين، ليعيشوا على أنقاض الآثار المنهوبة ليخفوا معالم الجريمة ".

صمتت وصبت كوبًا ثالثًا من الشاى، وقالت: "تعرف أننى مازلت على علاقة بالدكتور دياب وفرنسو ويوسف المقيمين بقرية تونس، يقدم المخبر وأمين وموسى وعثمان تقاريرهم للدكتور فى تونس عن تطور الحياة، وتأهيل الفلاحين لطمس معالم النهب.

قلت لنفسي صامتا :"جبر الرضا" اذن بحثًا لإلهانا عن سرقة الاثار، فسألتنى لتقطع الصمت : "اسمك إيه؟" قلت: "حمدى"، قالت: "الحقيقى ولاّ المستعار؟" قلت: "عدولة اسمك الحقيقى؟" قالت: "عديلة " هكذا سمتنى الدار التى آوتنى، كان يجب أن يكون لى اسم"، قالت: "أنت متزوج؟" قلت: "مطلق وعندى بنتان"، قالت: "أنت حزين"، لم أرد، قالت: "روحك جعلتنى أحكى لك دون خوف، يمكنك أن تبيت الليلة بمنزلى".

فوجئت لعرض المرأة الجرىء، قالت: "كيف تعيش بالمنزل الملاصق لمنزل الشيخ "موسى؟" هل تعرف أنه يملك أربعة بيوت أخرى بالقرية وعشرين فدانًا؟ ليس "موسى وحده من يملك كل هذه المنازل فـ "رشاد" و"أمين" و"عثمان" يستولون على كل أراضى وممتلكات القرية ، استكملت بجرأة لمواجهة صمتى: "لا يهمك الوقت ولا كلام الناس، فلا يمكن لأحد أن يتكلم علىَّ؛ لأن فرنسو ودياب أصدرا أوامرهما لعصابة الأربعة لحمايتى، أنا الرقيب الشعبى على طمس معالم التاريخ يا باشا ، لكنهم لا يعملون شيئًا من ذلك، يتصورون أننى امرأة داعرة، تقوم

بنقل الأخبار عن حياة الناس مقابل تركى أستمتع بفحولة الشباب، لا يعرفون أننى تعلمت فى دار الإيواء كل شىء ".

استكملت بثقة : "إن الوقت فى الدار كان مُملاً، وكانت بعض الجمعيات التابعة لفرنسو ترسل لنا شابة أجنبية تُعلِّمنا التأهيل واللغة والرسم، أذهلتنى طيبة هذه المرأة فحفظت حروف اللغات؛ كى أحس بطعم ونغمة صوتها حين تنطق حرف الراء، أصبحت صديقتى وقرأت كثيرًا من الروايات والكتب باللغات الأصلية، تفوقت على نفسى وعملت معها فى مرسمها بحى المعادى ، تعرفت هناك على "فرنسو" صديقها الحميم، استغرب حكايتى، وبذل مجهودًا كبيرًا ليقنع آن صديقتى أن يأخذنى، كان يعلم أننى امرأة تقدر أنوثتها، فأدخلنى منزله وجعلنى أميرته، عرفت الكثير عن حكايات قرية الخضر والآثار والأجهزة وذياب ويوسف رغم عدم نزولى هذه البلاد، طلبتْ منه الأجهزة أن يتخلص منى، لم يتمكن لأنه أحس أن لى دورًا كبيرًا لم يأتِ بعد، قال بغدر لم أتصوره فى مساء يوم مظلم: لا يمكن أن تعيشى بمنزلى، سأوفر لكِ منزلاً ومبلغًا ماليًا كبيرًا، يجب أن تستكملى حياتك بالقرب منى".

كان الفضول يقتلنى لأعرف باقى قصة الآثار والقرية التى سيبنونها على أنقاض الماضى ، قبلت العرض منتظرة دورى المهم حسب خطة "فرنسو" التى سماها "جبر الرضا"، لكن الانتظار طال والعمر يجرى، ولم يعد يكفينى هذا الهواء الذى يقطعه الخواجة فيتصل بى لأزوره بقرية تونس كل عدة شهور أحكى له ما عندى ويعطينى الأمل ، رغم مظهرى المتواضع ودكانتى الفقيرة، وقطيعة الأصدقاء والأهل الذين لم أعرفهم فإن الجميع يعرف أن وراء حكايتى تكمن الأسرار، لم أَبُح بها لأحدٍ قط.

حكت "عدولة" ببراءة، لم يقطع حديثنا كالعادة مرور إحدى النساء، أو صراخ الأطفال، كنت أحس بحماية غريبة لمجلسنا، كانت أشباح "ضاحى" و"على أبو شنب" وزوجتيهما تحوم حولنا، ليفردوا حمايتهم على لقائنا الطويل.

اقتربت روحها لتخترقنى، فانسحبت بعيدًا متلافيًا أنوثتها، قلت لها: "الفجر قارب على الطلوع، نستكمل غدًا"، قالت: "أنت مسافر"، قلت: "أمامى وقت طويل"، لامست يديها ونظرت إلى عينيها، وتمنيتها فى حضنى ". ابتسمت وأنا أغادر بيتها ، وقالت دون أن تنظر إلى وجهى: "هنشوف".

سلمتنى كيسًا أسود بداخله ظرف كبير، وقالت: "لا تفتحه إلا فى الصباح"، ذهبت للمنزل، فتحت حنفية المياه وأخذت دشًا، لم أشتم رائحة المياه الملوثة، لبست جلبابًا أبيض، وقررت النوم دون تفكير، فى الساعة السابعة صباحًا رن جرس التليفون، جاءنى صوت الدكتور "عبد العال" قائلاً: "لازم تكون معانا النهاردة فى اجتماع المجلس الاستشارى، لازم ترجع ضرورى"، قبل أن أرد كان صوت الصراخ والعويل أمام منزلى يرتفع، كان هناك تعديد وصراخ أشبه بتوديع الميتين، فوجئت بالسائق يدخل المنزل وبدون مقدمات صرخ بصرامة لأجهز نفسى للسفر ، بناء على أوامر الدكتور "عبد العال"، دون أن أرد استكمل: "سأساعدك على جمع ملابسك"، قلت له: "من يصرخ بالخارج؟" قال ببساطة: "المرأة اللعوب صاحبة دكان البقالة وجدوها مقتولة فى الفجر".

القسم الثانى: الرضا

"يوسف"

شىء مفقود فى الحياة يجعلنا أسرى الوحدة، شىء ضاع فى يوم غير معلوم، ربما بسبب تمرد "آدم" و"حواء" على المألوف، واختيارهما التحدى ، شىء ورثناه، ربما هو جزء من الطبيعة يترعرع بقلوبنا، ربما كان هو النطفة التى كبرت داخل رحم الأم، وأدت لوجيعتها؛ لنصرخ خائفين من النور أو فرحين بمغادرة الظلام، شىء أتى برواد الجمعية الروحية لهذه القرية البعيدة ليقيموا فيها الاجتماع الشهرى للجمعية، ربما كان هناك سر يخفيه هؤلاء الرواد، ويحتاجون أن يختفوا عن أعين الدنيا ليكشفوا لأرواحهم دون مواربة رسالة الحياة، شىء جعل خطفى من مركز البحوث فى سيارة صديقتى "آن" أجمل حدث فى حياتى منذ سنين طويلة.

سارت باتجاه قرية تونس ، الطريق على بركة الفيوم يمتلئ بالنور، قالت بصوت حنون: "إنها طاقة الأمل"، رائحتها ومخارج ألفاظها تخلب روحى، ربما لنزول ملاك من السماء يملأ فجوة العلاقة بيننا، قالت: "حاسس بالنور"، قلت: "يخترق روحى"، قالت: "افتح شرايينك فالبراح رائع".

الجلسة الليلة بعنوانٍ تعرفه "آن"، كانت الجمعية تترك لأحد الرواد اختيار عنوان الليلة الشهرية، لا يبوح به لأحد إلا عند إطفاء الأنوار وإعلان البداية، أشارت إلى صدرها، وقالت العنوان يكمن هنا، قلت : "القلب"، قالت: "كيف تدخله وتبنى لنفسك بيتًا بأحد أركانه؟" قلت: "بالإيمان"، قالت: "ما سر الإيمان؟" قلت: "الحب"، أخذت يدى بين جفنيها وأدخلتنى بطاقة النور، رفعت يدى إلى صدرها لأتحسَّسه ولفت بها حول رقبتها، توقفت عند قلب السلسلة الفضية التى تلبسها، قالت: "ماذا تحس؟" قلت: "البراح"، قالت: "ما السر؟" قلت: "الرضا".

اقتربت السيارة من منزل "فرنسو" بقرية تونس الذى سنقيم فيه حفل الليلة، فتح أحد الفلاحين الباب لندخل، تحسس الرجل وجهينا المبتسمين فالتحم مع الأشجار التى عاش وسطها طوال عمره، انفرجت أساريره وسط الورد الذى يملأ قصر "فرنسو"، وقال: "اتفضلوا، يا أهلاً وسهلاً بضيوفنا الكرام، أجهز الغدا يا هانم؟" قالت "آن": نحن عطشى".

أظهرت ملامح الرجل لوحة لفارس قديم هزمته المعارك، فارتكن ليحرس فيلا "فرنسو" فى أيامه الأخيرة، ينام علي باب القصر رغم أن منزله قريب بقرية الأبعادية الملاصقة لتونس، يقول العم "شافعى" لأولاده وجيرانه: "إن روح القصر الهادئة تمده بالأمل، ينام أيامًا كثيرة دون أن يستيقظ، لكنه مع ذلك كان العين الحارسة للبيوت التى يمتلكها الأجانب والمصريون رواد الجمعية، وأصدقاء "فرنسو" و"إيفلين" صاحبة أقدم بيت فى تونس.

استقبلنا "يوسف" ابن قرية تونس وصاحب معرض الصور الوحيد بها، كانت انطباعاته غير مريحة، فهو يعرف أن ثمة شيئًا بينى وبين "آن" فى طور التكوين، ربما كان هذا الشىء الذى يتكون بيننا هو ما يفقده "يوسف"، كان مغرمًا بزوايا الكاميرا التى ينقل بها الحياة التى يعيشها مع الأهالى، فيركز على الألوان القاتمة لجحيم أرواحنا.

عرَّفنا على صديقه المخمور، وصفه بأنه قرينه الروحى، كان صديقه يتلعثم وهو يحكى بشبق عن تاريخ "يوسف" وتونس الخضراء، تركنا "يوسف" لنستمتع بحكايات قرينه، قال ساخرًا: "يوسف مُلْهَم، وصوره مفجعة، عبرت عن رؤيته السوداوية رغم براعة الألوان

والوجوه المختـارة، ظلـت صـورة الفلاحـة المصـرية العجـوز مرعبـة، أظهـرت ملامحهـا الحـادة تجاعيدها لتملأ الفجوات تحت العيون والرقبة، الجميع يعرف سر علاقته بـ "فرنسو" المستشرق الأمريكى الذى عينته الحكومة؛ ليقوم بمتابعة البحث الذى تشرف عليه السفارة لمعرفة "أنين البط ببركة "قارون"، وعلاقته بوقت الشروق وبهجـة الفلاحين! قـال: "إن يوسـف يـذكرهم دائمًـا بهـذه العبارة، وهو يحكى عن بداية علاقته بـ فرنسو".

بلع حبتين من شريط أدخله سريعًا بجيب قميصه، وقال: "حين قابلـه يوسـف علـى شـاطئ البركة بقرية تونس بالصدفة، وقبل عزومته على العشاء فى منزله الصغير ليشاهد صـوره، وقـف فرنسو كثيرًا أمام الصور المختلفة، خلبت عقلـه صـورة الفلاحـة العجـوز، قـال ليوسـف: "أتبيعنـى الصورة؟" قال يوسف: "إنها هدية لذوقك الرفيع، كان الخواجة قد أحكم الخناق على الفنان"، فقال ليوسف بعد ليلة طويلة حكى فيها كل مـا يعرفـه عن تـاريخ القريـة والفلاحين البسطاء: "يجـب أن تخلق عالمك بنفسك"، لم يفهم يوسـف الكلمـة فأعـاد فرنسـو العـرض: "سـوف أقبـل الصـورة ولكـن فى مقابل مشاركتى بناء قرية للفنانين على شاطئ البركة فى أعلى ربوة بتونس، من وقتها وطاقة القدر فتحت أمام يوسف، ولم يعرف كيف يمن على الخواجة لتحقيقه أحلامه".

استدعى قرين "يوسف" الكثير مـن الحكايـات، شـرح كيـف بنيـت القصـور، الرجـل عليمًـا بخبايا الأمور، ولا أدرى كيف حكى تفاصيل مرعبة عن بناء قرية اعتبرها زائروها أجمل أمـاكن الدنيا.

سرى مفعول الحبة الجديدة التى بلعها أمامنا ، فقـال: "فـى هـذه الليلـة كـان يوسـف يعلـم أن المقابل يجب أن يكون أكبر من الصـورة"، فقبِل العرض ودخل الحجـرة بمنزلـه المتواضـع، ظـل يبكى بصوت مرتفع، دخـل "فرنسـو" عليـه وحضـنه وتحسـس أعضـاءه، كانـت مـؤخرة "يوسـف" الطرية مدعاة للإثارة، شد ببطء الشورت من على مؤخرته، لحس بحنيـة جسـده، أدار الـلاب علـى فيلم جنسى، فـى هـذا الوقـت تأكـد "يوسـف" مـن غلـق البـاب، وقضـى ليلـة تاريخيـة كانـت الأسـاس الذى بنى عليه "يوسف معرضه وفندق "زاد الكريم" الشهير بمدينة الفيوم على شاطئ البحيرة.

أما "فرنسو" فقد استدعى فنانًا كبيرًا مشهورًا، ليضع تصورًا للبيوت التـى تحـيط بالمرسـم والفنـدق لتكـون علامـة علـى عـالم العجائـب، أبـدع الفنـان المصـمم للقريـة فـى تشـكيل القصـور وحجمها، وأنـواع الزهـور التـى تحـيط بهـا والمصـاطب، والأبـراش والقلـل القنـاوى التـى يجـب أن تملأ زواياها، كانت قصور "تونس" الباهرة قطعة فنية.

فـى هـذا الوقـت مـرت مـن أمـام بـاب المنـزل إحـدى سـيارات النقـل، صـرخ السـائق شـاتمًا الشاب الذى يحكى لنا عن أجمل القرى، لم يرد عليه، قـال ليبـدد دهشـتنا: "هـذا سـعيد السـائق الـذى يسهل كل شـىء"، قالـت "آن": "لكـن تـونس تمتلـئ بـالزهور الجميلـة"، قـال الشـاب كأنـه لا يرانـا: "بعد أن سـهل يوسـف لفرنسـو شـراء قطعـة الأرض بمسـاعدة سـعيد السـائق المتفـرنج البـارع فـى تسهيل الإجراءات".

وأشار إلى السائق، وقال: "يمتلك عربـة نصـف نقـل، ويفتح دكانًـا يبيـع فيـه البقالـة، تركـه لزوجته وتفرغ هو بالكامل ليوسف وفرنسو والمهنـدس الشـهير؛ ليسـاعدهم علـى رشـوة المـوظفين وإحضـار أدوات البنـاء والتعاقـد مـع المقـاولين لتشـييد تـونس الجديـدة التـى يمتلـك معظـم أراضـيها الوالى دياب صاحب النفوذ الذى ساهم مع فرنسو فى وضـع التصـور الأولـى، واختـار لـه مـن بعيـد يوسف وسعيد".

كان يعلم أن "يوسف" يبيع أى شىء مقابل أن ترى صوره المظلمة النور، فسهَّل ذلك علاقته مع البهوات الذين اشتروا بيوت القرية بالملايين، أبدع "يوسف" فى معرضه وفندقه الجديد؛ ليجلب السياح ليتعرفوا على مفاتن تونس المحروسة.

تمايل الرجل يمينًا وشمالاً، قبل أن يغط فى النوم، عرفنا أنه عشيق "يوسف" الذى لا يحكِ لأحد قط حكايته مع "فرنسو"، لكن قرينه أبدع فى تصوير ما جرى بينهما، ومع ذلك حين استقبلنا "يوسف" عصر اليوم نظر إلينا بريبة ضاحكًا وقال: "الملائكة حضرت!"

"إيفلين"

أعلنت الشمس ببراءة توديع السماء، نظرت إلى عين "آن" صامتا، الخطوط الفاصلة بين الزهور وسط الأشجار فى بيت "فرنسو" أشبه بخيوط ذهبية تلمع وتشع بألوان رقيقة فتربطنا بمشاعر رفقاء الروح، أحسست بملمس الشعاع الرائع، تهيأ لى بأننى أولد من جديد، قالت "آن": "اللوحة التى تتكون بعقلى مدهشة"، قلت: "احكى عنها"، احتضنت أصابع يدى، وقالت: "أغمض عينيك"، قلت: "النور"، قالت: "ألوانها الخضراء والزرقاء والحمراء زاهية، رغم تداخلها وانتشارها فى فروع الأشجار، لكنها تميل إلى الأبيض الفاتح، اللوحة تكشف عن نفسها بالأزرق"، قلت: "حدثينى عنها "، مسحت وجهى بأناملها فطارت روحى، لم يعد لى جسد، قالت: "اللوحة تعبر عن رسالتى ، هدأ صوتها، وانتشر صوت الطيور حولنا ، فأحسست بروح اللون الأزرق يملأ الدنيا".

قلت: "ما رسالتك؟" قالت: "إنها إطار كبير على شكل دائرة يحملها طائر بكر مبتهج ، فى وسط اللوحة تظهر البيوت والناس، والحقول والشوارع، والمحلات والأسواق والمصانع كأنها مدينة البراح، والفنان يجلس بجوار لوحته يضع لمساته الأخيرة ليظهر روعتها، كان الطائر الذى يحمل الرسالة يحاول أن يضع لمسة أخيرة على عمل الفنان، فيلقى هنا بكلمة وهناك بحرف ليكون كلمة جميلة اسمها الرضا".

سأل الطائر الفنان، وهو ينظر إلى اللوحة التى يحملها: "لماذا هم غير مبتهجين هؤلاء البشر والحيوانات داخل مدينتك؟ لماذا لم تكشف لوحتك كل دفء قلوبهم؟" يهرب الطائر بعيدًا حين يحاول أحد الصيادين إطلاق الرصاص عليه لقتله ، يختفى الطائر بالغابة شهورًا وسنين، ثم يعاود الخروج مرة أخرى ماسكًا اللوحة ليسعد الناس والحيوانات والزرع، ظل شهورًا يبحث عن الفنان، ليستكمل ألوانه متأكدًا أنه سيخلق السعادة، قلت: "ما أجملها مهنة الطائر! ما أجملها!" قالت: "بماذا تحس؟" قلت: "بالروعة"، قالت: "افتح عينيك".

وجدت "إيفلين" فى مواجهتى، قالت: "خلبت عقلك ألوان آن مستر حمدى"، قلت: "إنها ملاك طاهر ، ويجب الكفاح لفهم لوحاتها"، قالت بخبث: "حاذر فآن فنانة، ولا تحب الاستقرار، حياتها الطويلة علمتها أن ريشتها هى الباقية لها"، ضحكت بخلاعة رغم سنها الكبيرة وقالت: "تستخدمنا جميعًا لتكوِّن عالمها".

"إيفلين" الأم الروحية للجمعية، هى التى تدير بشكل فعلى كل شىء، لم أفهم قط طبيعة علاقتها المتينة بـ "فرنسو" و"دياب" لكنها كانت الجسر الذى نعبر به للأمان، اشتهرت بصناعة الخزف المحلى وتصديره لأسواق أوروبا، أبهرت العالم بعد أن جعلت الفتيات اللائى يصنعنه يقمن بزيارة المعارض الدولية ليحكين خبرتهن فى خلط الروح بالطين لتظهر الأطباق والأوانى مملوءة بالبكارة، إلا أن الجميع يعرف أن دخلها من هذه الصناعة لا يمكن أن يجعلها تقيم حمام سباحة فى قصرها بتونس يتكلف عشرة ملايين جنيه، هذا المبلغ يكفى كما قال العم "شافعى" لفتح عشرة مصانع واستصلاح آلاف الأفدنة، ويكفى لإزاحة الحزن من قلوب آلاف الناس".

لكن "إيفلين" كانت تقول: "ليس المهم أن تمنح، المهم أن تتفوق على نفسك لتنتج عالمك، أنا هنا لإزاحة التراب عن الجواهر البشرية لتصنع مصائرها، يجب أن تشارك فى دعم مستقبلك وإلا استولى الآخرون على جهودك"، كانت خبيرة وعليمة بكل شىء فى القرية والقرى المجاورة لدرجة جعلت السكان يسمونها عن حق "عمدة تونس".

"هدى"

نادى علينا "فرنسو" وقال: "إيه الحكاية، أنتم بتحبوا بعض؟" قالت "آن" بدلال: "الحب ممنوع فى زمنك يا جنرال ".

لم يكن "فرنسو" مهتمًا بحالتنا الخاصة، كان حضور الرواد العشرة لجمعية الأرواح شيئًا يستحق مزيدًا من الترتيب، انطلق من بعيد صوت أذان المغرب، ضحك "فرنسو" وقال: "الدين هو الثمرة الوحيدة الإيجابية التى أنتجتها صراعات البشر".

استكمل ناظرًا إلى عيونى: "غذاء تونس سوف يخلب عقلك"، ظهرت فلاحة وسط الصالة تضع الأطباق والطعام على الأرض، فانتقلت إلينا نظرتها الحانية، كانت الحياة بسيطة داخل بيوت قرية تونس، فمظهر الحضارة والتقدم أزاله "فرنسو" من قصره لنعيش هذه الليلة مُنعَّمين فى الحياة البدائية، تحدثنا مع بعضنا البعض فى أمور كثيرة، وتبادلنا النكات والتعليقات الطيبة على سلوكنا المتناقض.

كنا نحاول الدخول لعمق ليلة السبت الفريدة التى يجب أن نتخلص فيها من كل ما يربطنا بأسر هذا العالم ، لنحيا كميتين لمدة ساعات نسترجع الماضى والحاضر ونستشرق المستقبل، غسلنا أيادينا، ونظفت الفلاحة المكان بسرعة وبراعة ، تنظر إلىَّ نظرات غريبة كل فترة، تحاول أن تذكرنى بماضٍ قريب ، لكن الحوار بين الرواد أخذنا مرة أخرى لنتفاجئ ب "فرنسو" يداعب الدكتورة "هدى" مفتخرًا بقدرتها على تحليل اللوحات الفنية بطريقة باهرة.

أشار إلى لوحة كبيرة تقبع على حائط الصالة الواسعة التى تضمنا، وقال: "اشرحى لنا يا دكتورة مضمون الألوان "، فأصغينا إلى صوت الدكتورة واتجهنا بعيوننا من على اللوحة إلى فمهانسمعها وهى : "فى قلب اللوحة يظهر إنسان ضخم قوى، برىء يشبه الملاك ، يحاول الأقزام المحيطون به أن يضربوه فى كل أجزاء جسده، دمه ينزف من أصابع قدمه وركبته، ووركه وظهره، وكتفيه ورأسه وذراعيه، يحاول الأقزام المتسلقون على جسده العارى معاودة الضربات والطعنات لقتل روحه، فى الوقت الذى تهيأ لهم بأنهم تمكنوا منه، شقت روحه الجسم البشرى، وخرجت منه منطلقة نحو السماء، تركت الجسد المصاب ميتًا، انظروا إلى هذا الطيف فوق رأس الإنسان المتوحش، انظروا وقد تحول لطائر مميت، شاهدوا عيون الأقزام المذهولة تحت اللوحة وهم ينظرون بعيدًا ناحية الروح وهى تطير لتعيد إنتاج الدنيا، وهم مندهشون من قدرة الطائر على المقاومة والتحمل، والخروج بمصيره وحياته من وسط شرورهم.

انظروا كيف يحاول الأقزام تقطيع ذراعيه، انظروا إلى قوة يديه البنيتين وهما تلقيهم على الأرض بقوة، يحاول الأقزام تقطيع قدميه فيدوس على بعضهم، يصعد بعضهم على يديه اللتين تحاولان إبعادهم عن طريقه، تحاول الروح بعد أن تعودت الطيران الفرار منهم، لكنهم يمنعونها ويضعون الأثقال والأعباء عليها والطائر يحاول بعد عودة روحه الإفلات، انظروا أعلى اللوحة عند المنتصف، لتشاهدوا الروح وهى تخترق الجسد المطعون، وتطير للسماء والجبال والغابات بعيدًا عن شرورهم؛ لتزرع الحب والرضا والخلاص المنتشرة فى الخلفية بألوانها الزاهية.

صمت الجميع بعد إبداع الدكتورة "هدى" فى وصف لوحة غريبة لا يظهر منها إلا ألوان متداخلة، لا يعرف أحد أن الفنان الذى رسمها كان يقصد تلك القصة أم كانت تدور برأسه حكايات

أخرى، لكن "فرنسو" قطع الصمت قائلاً: "أعتقد أن لى رؤية مختلفة لما دار فى عقل الفنان"، ضحكنا جميعًا وانتظرنا "آن" لتفصح عن السر الذى ستكشفه الليلة.

جلست "هدى" وحيدة تبكى، قال "فرنسو": "يا ملاكى أنت تذهليننى ببراءتك"، قالت "إيفلين"، بعد أن أخذتها فى حضنها: "إن ألمك يدفئ قلوبنا"، قال "ربيع" مبتسمًا: "لم نكن ندرى أن روحك السامية ستكشف مغزى ألوان الفنان الباهرة"، قالت "هدى": "إن عقلى سينفجر من الأحياء، ابدأوا الليلة لأنعم بالظلام".

"آن"

ملأت كأسى من زجاجة قرر "فرنسو" أن يفتحها الليلة ابتهاجًا بتجمع الرواد العشرة، وانسحبت لشرفة الصالة التى تطل على حديقة كبيرة مزروعة بأنواع باهرة من الزهور والفواكه، الرحيق فى الشرفة يدعونى لتذكر اللحظة التى قررت فيها ترك المنزل، حين أعادت زوجتى سبى أمام طفلتىَّ اللتين كنت أعشقهما، كررت طلبى بعدم إهانتى أمامهما، لكنها تمادت وأظهرت فى هذا اليوم كل ذكرياتنا الملوثة، كنت أقول لها: "كفى"، وهى تقف بشعرها المنكوش تسرد بالتفاصيل أيام الغربة التى أضاعتها فى متابعة علاقاتى النسائية التى نسجت كل خيوطها، كنت أقول وأكرر بأن تصمت، لكنها تمادت فقررت طلاقها والرحيل، كانت عيون طفلتى الحنونتين تبكى، وأنا أجمع حقيبة ملابسى وبعض الأدوية، وقفتا قرب الباب وقالتا: "على فين يا بابا؟" لم أرد، جريتا بحضنى وقالتا: "لا تغب عنا"، لم أفتح فمى، لكننى تحسست رحيق دموعهما بفمى، فى هذا اليوم تحسست القسوة التى وصفنى بها أبى قبل وفاته.

دخلت "آن" الشرفة وقالت: "ليس هناك تحدٍّ للبشر أكبر من الحرية، إنها نسمة الحياة التى تعيدنا لإنسانيتنا، عندها نقرر فك القيود، إنها اللحظة التى تغير وجه التاريخ، كل الأنبياء قرروا التحدى والسير بالطريق للنهاية".

أخذتنى فى حضنها، أحست بدموعى، قالت: "أنت تستحقها لا تبخس قدرك، امتن لنيلها، إنها أمل البشرية، أبهى شىء فى الوجود، استمتع بها فأنت أملنا".

على غير توقع دخلت "فاتن" ، نظرت فى عينى دون أن تنطق، كان "فرنسو" يطلب إحدى الفلاحات لتخدمنا طوال الليلة، وتبيت معنا دون أن نعرف كيف يسمح للفلاحات فى هذه البلاد بمثل هذه الأعمال، قالت بتحدٍّ فى وجهى: "ألا تتذكرنى؟" لم أتوقع سؤالها، نظرت إلى عيونها فتذكرت "عدولة" صاحبة الدكان التى قتلت بالخضر، قالت: "أنا فاتن زوجة عثمان مسؤول الجمعية"، قلت : "بتعملى إيه هنا؟" ضحكت بسخرية كأننى لا أعرف، وقالت: "نحن جميعًا خدم دياب باشا وأصدقائه".

قالت "آن": "نعم يمكن التناغم فى هذا العالم رغم تناقض ألوان الخير والشر، العالم مترابط ، فكيف اجتمع الرواد العشرة، فى الوقت نفسه تتعرف عليك امرأة رأيتها فى مكان وزمان آخر"، نظرت من الشرفة بعيدًا ناحية البركة، واستكملت: "أتسمع خرير المياه وصوت الرياح والبط، وزغاريد الفلاحين فى البيوت المجاورة؟ حين نبدأ حياتنا بالمشاهد اليومية يبدأ اللحن محايدًا، ثم ينقلب لصوت متناغم مرتفع يدعوك للألفة، يمكنك أن ترقص وتغنى لتصبح جزءًا من مقطوعة الكون الرائعة، يمكنك أن تتحول لجملة موسيقية كاملة لتستكمل الرضا المجانى، وإذا رفضنا الانصياع للحب يحدث الخلل وتبدأ الكوارث، سألتنى وهى تحتضن يدى بكلتا يديها: "من أين لك بكل هذا الصمت؟"

أعادنى وجود "فاتن" لأحداث الخضر رغم ملاحقات "آن"، كى أمر من خرم الإبرة وأستمتع معها بالليلة التاريخية للجمعية فى قرية الألفة المنسية "تونس"، احتارت فى أمرى وأخذت يدى لنبدأ الليلة.

طلب "فرنسو" من "فاتن" مغادرة باب القصر والمبيت بإحدى الحجرات بالحديقة الواسعة التى تلف قصره الفخم، جلسنا جميعًا فى دائرة بوسط الصالة فى انتظار غلق الباب

والنور الذى ستقرره "فاتن" و"آن" فى لحظة واحدة، قالت بصوت مسموع: "سر الليلة هو المفتاح السحرى الذى نخبئه بقلوبنا، لنسمح لرائحة العنبر أن تدخل أرواحنا وتطعمنا الألفة، سنحكى عن المفتاح الذى سبب كل هذه السعادة للبشرية، أنتم جميعًا تعرفون أننى لم أجن فى حياتى أسمى من السير فى شوارع هذه البلاد وقراها، أتلحَّف بعيون الفتيات لأستمتع بالبراح، أنقل زهورها وألوانها الزاهية ".

صمتت دقيقة دون أن تتحدث كأنها إله ينتظر الشكر لرحمته وغفرانه ، ثم قالت: "عشقت الزهور الحمراء ونقشتها على كراساتى فى مدارسى المختلفة بقريتى القريبة من أمستردام، توفيت أمى وأنا بالثالثة من عمرى، اعتنى بى والدى، كان يعمل بالكنيسة الوحيدة بالقرية، كانت حياته بعد العمل طوال النهار فى بيت الرب مثيرة لفضولى، علمنى الرسم والموسيقا، قرأ معى الأدب الروسى والبرازيلى والأسبانى، حينما بلغت الثامنة عشرة مات وتركنى وحيدة، ترك مزرعة صغيرة باسمى، أدرت المزرعة باقتدار، تمكنت من أخذ دبلومة فى علم الألوان، كنت أدرك مدى براءة اللون الأبيض فخلطته بالأزرق والأخضر واللبنى، أبدعت ألوانًا بهرت سكان القرية التى كنت أعيش فيها، واظبت على إقامة معرض للألوان بالسوق الصغير كل أحد، علمت الأطفال قيمة الطاقة التى يأخذها الإنسان من ألوان الشجر، صنعت لوحات وسجاجيد بطرق بسيطة مذهلة، وبعتها لجيرانى بسعر التكلفة، اشتريت السجاد الأبيض وقمت بخلط ألوان الزهور البيضاء والحمراء فى دوارق كبيرة، يغرس الأطفال فيها أقدامهم، ليزينوا السجاد بألوان الورد البديعة، إن أقدام العصافير المشبعة بعطر الزهور لا يمكن أن تضيع آثارها.

كبرت طموحاتى وافتتحت معرضًا كبيرًا لإنتاج اللوحات القماشية المرسوم عليها: "أكف وأقدام، وأجساد الفتيات وأشكال لم يفهم أحد سر براعتها حين تقع عليها العين، لكنه يتأكد بأن اللوحة هى جزء من الطبيعة تلهمه البراح دون حدود".

ازدادت شهرتى وانتقلت لأمستردام، استأجرت بشارع الملكة شقة صغيرة، أدرت ورشة لصناعة السجاد، تعرفت على شاب من دولة عربية كان يدرس الإخراج السينمائى فى معهد الفنون ، خلبته بساطتى، عاش معى سنتين وبعد انتهاء دراسته طلب منى الزواج والعيش بمدينته البعيدة على شاطئ الخليج، لم أتردد بعد أن أقنعنى بأن ورشتى ولوحاتى سيزدهران ببلدته.

عشت بدبى عامًا واحدًا، بعدها لم أتمكن من التنفس، أُصبت بالسرطان حين تزوج الشاب ابنة عمه شيخ القبيلة، ليزداد الدم والنسل العربى الخالص، فوجع قلبى وتيبس حين كان يبرر بكذب زيجته دون علمى فتمكن المرض اللعين منى ، أخذت لوحاتى وعدت لمرسمى، بعد شهر واحد قابلت "فرنسو" الذى كان فى رحلة ترفيهية وحيدًا، خلبت براءتى عقله فسجد تحت قدمى فى شارع الملكة أمام شقتى، رحلت معه لتونس ملجأ الفنانين والعطاشى، القرية التى سأعيش فيها باقى العمر على شاطئ بركة "قارون"، وأشارك بأحداث لم أكن قط أتوقع أن تصبح كل حياتى.

تحلم "آن" وتطير وتحكى، ونحن جميعًا نتلمس نورها فى الظلام، قالت بعد أن قطعت الصمت: "إذا اكتشفت مفتاح روحك اكتشفت السر".

لا أستطيع أن أنكر فضل الألوان فى استمرارى حتى اليوم حية، لا أستطيع أن أنكر رحلاتى داخل لوحاتى التى جعلتنى أكتشف سر براحى وعشقى لهذه البلاد التى وضعت مفتاح الحياة على صدر كل منا كوسام.

عندما شاهدت بالمعابد والمتاحف المصرية مفتاح الحياة على شكل الزهرة اكتشفت مدى روعة هذه الأرض، تسلَّحت بالتحدى، قررت العيش والموت هنا، لم يعد لى شىء آخر سوى هذا البراح والأطفال الذين أعلمهم الانطلاق والطيران، انطلقوا جميعًا واكتشفوا مفاتيح أرواحكم لتبلغوا الرضا، ليس للنور سبيل إلا بالامتنان، ليس للرضا سبيل إلا بالحرية، لا يمكن أن يكون هناك جبر وتحس بالسعادة، إن من شروط السعادة أن تسير حرًّا نحو مصيرك.

قالت فى نهاية الليلة بعد أن أشعلت المصباح: "سيمر اليوم دون أن نعرف تفاصيل الأحلام، فالحياة مملوءة بالأسرار، سأترككم لتكتشفوا بأنفسكم معنى بلوغ الأمان، الطريق الواضح أمام أعينكم جميعًا"، أضاءت نور الظلام فظهر الفجر من بعيد لينهى الليلة الفريدة.

"ربيع"

حين نطقت "فاتن" اسم "عدولة" صباح ليلة السبت، فوجئت بـ"آن" تسألني: "هل تعرفها؟" قلت: "ماتت بعد ليلة ممتعة، سمعت منها حكايات عجيبة عن الرواد العشرة وسرقة الآثار، والبحث الذى يشرف عليه الدكتور "عبد العال"، ويتابع نتائجه "فرنسو"، قالت: "جبر الرضا؟" قلت: "نعم، وكلفونى بكتابة الجزء المتعلق بالتاريخ الشفوى للفلاحين وكيفية قبولهم بالمصير"، تغير صوت "آن" كأنه بكاء لأم العصافير، قالت: "كانت صديقتى"، قلت: "حكت بحب عن علاقتكما فى دار الإيواء، ودورك فى تغيير حياتها"، قالت: "لم أكن أتوقع أن أفقدها أبدًا"، دخل "فرنسو"، استأذننا للرحيل وقال: "كانت ليلة لا تُنسى، أبدعت آن فى اختيار السر وجعلتنا نعرف مفتاح الرضا بمصيرنا"، رنت كلمة الرضا فى أذننا ، وقالت "آن" بحياء: "سوف نمكث أنا و"حمدى" عدة أيام للاستشفاء"، قال: "ستمكث معكما الفلاحة لتلبى طلباتكما"، حذرنا منها وقال: "دعوها تنام دائمًا خارج المنزل، ولم يتبقَّ معنا من الرواد العشرة سوى "إيفلين" و"ربيع".

يعمل "ربيع" مع "فرنسو" فى مشاريع مختلفة منذ عدة سنوات دون انقطاع، هذا التفانى جعله مترجمه المفضل، لكن الشىء الأكيد أن "فرنسو" استخدم حيلاً كثيرة ليجعله قرينه الروحى، أجرى مقابلات كثيرة ليختاره بعناية من وسط مائة وعشرين مترجمًا، سمع أصوات الحروف وميز بين كل منها، انجذب ناحية الصوت الذى قال اسمه بالإنجليزية كامرأة، كان يعلم السر الذى على أساسه سوف يختار فريسته، يجب أن يكون مهزومًا، مجردًا من المشاعر الإنسانية، لينقل بإخلاص نبض الناس دون انطباعات شخصية، طبق الشروط المثلى لاختياره من وسط مائة وعشرين مترجمًا تعرف عليهم وقابلهم.

يفعل "ربيع" ما يؤمر به، دون أن يسأل نفسه: لماذا أفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أنه مجرد آلة لتوصيل جسرى النهر، لا يهم من يقف عليه أو يمر فوقه، عاش حياته وهو صغير بحى "السيدة زينب" لأب موظف بالجهاز المركزى للمحاسبات، وأم طيبة لا تخرج من منزلها إلا للسوق أو لأداء الواجب فى المناسبات، كان وحيدًا ومع ذلك لا يتذكر مرة واحدة أن أباه قال كلمة طيبة فى حقه، كان دائمًا يلقى بالملاحظات والنصائح؛ كى ينال "ربيع" شرف انتسابه لطبقة كبار الموظفين.

بعد تخرجه فى كلية الآداب عمل بمكتب ترجمة، لكن والده توسط ليعمل بأحد الأجهزة السيادية كباحث ومترجم مدنى، خلال هذه الفترة تزوج من زميلة بالجامعة، كانت علاقتهما لا تدل كثيرًا على العشق، لكنها أحبَّت رقته وصوته المخنث.

عاشت زوجته "فاطمة" معه سنتين تقوم بعمل كل شىء، حتى المعاشرة كانت هى التى تطلبه لينام معها، كان طائعًا لدرجةٍ أذهلتها، لم يتمرد أو يصرخ أو يعلن استياءه قط.

فى أيامهما الأخيرة أصبح على غير عادته يعود متأخرًا مخمورًا، كانت تعلم صحبته الجديدة بفعل عمله فى الأجهزة، يسهر طوال الليل ويأتى دون أن يسألها عن أى شىء، ينام كالكلب على الأنتريه، لم يعد يتذكر ابنته "مى" أو عمل الزوجة، نسى كل شىء لدرجة جعلتها تؤمن بأن الحياة معه لا يمكن أن تستمر، قررت الانفصال وأخذت الشقة والبنت وبعض أمواله، وطردته للشارع.

عاد لمنزل أمه التى كانت تعيش وحيدة بعد وفاة زوجها الذى أقام أصدقاؤه عزاءً كبيرًا يليق بموظف محترم، أغلقوا شارع السد وركنت سيارات فارهة بشارع بورسعيد بالقرب من ميدان السيدة، لتدلل على أن الموظف يجب أن ينال حقه حيًا وميتًا.

طمأن أصدقاء الميت الزوجة المجردة من المشاعر تجاه زوجها الموظف بأن معاشه سوف يصلها قبل نهاية الشهر، عاشت أم "ربيع" عدة شهور وحيدة دون التزامات حتى عاد إليها فى ليلة حزينة ليزفَّ خبر طلاقه من زوجته، دون أن تستفسر عن السبب أعدت العشاء، عادت روحها من جديد بواجبها تجاه ابنها، بعد أن عاشت ستة أشهر تبحث عن دور وكادت تموت.

لكن "فرنسو" فهم خباياه دون أن يحكى "ربيع" شيئًا فى أول مقابلة، سلم عليه بحرارة وسأله بالإنجليزية عن وضعه الاجتماعى، قال خجلاً: "مطلق"، رد "فرنسو": "أنت مقبول فى عملك الجديد.. ألف مبروك.

ودون أن يرد "ربيع" استكمل "فرنسو": "أنت مترجم السفارة فى مشروع مستقبل التاريخ جبر الرضا، سوف تلازمنى طوال الوقت، اترك رقم تليفونك ووقع العقد مع إدارة المشروع، وانتظر تليفونى للبدء فى أقرب فرصة"، احتضنه بحرارة، لامس قضيبه فأحس بروحه، وقال: "سنصبح أصدقاء".

ومع ذلك حين قرر "ربيع" المكوث معنا بالقصر فى تونس لم تشغلنا حكايته؛ لأننا نعرف أن الرواد بالجمعية يربطهم شيء أهم من التاريخ الشخصى، ربما كان هذا الشىء الذى يمتلكه "ربيع" هو السر الذى نبحث عنه، ربما كان هذا الشىء المفقود عنده هو ما يجده بروح "فرنسو"، ربما كان فى الطائر المغرد خلف الشباك الذى يتوسط غرفة القصر.
لم تكن مفاجأة حين بدأ "ربيع" فى الليلة السابقة بالحديث عن اللوحة التى حللتها الدكتورة، حين قال والظلام يعم على الصالة إنه يشاهد طائرًا من بعيد يتوسط اللوحة، وتخرج منه خيوط رفيعة تظلل على مكان يمتد من قرية تونس إلى قرية الخضر، تمر الأحداث اليومية بالقريتين وداخل البيوت، تتشابك العلاقات وتترابط، يجلس الناس على المقاهى والجوامع ووسط الحقول، تجرى الاحتفالات والموالد والطقوس، يعيش الناس المنعمون يومياتهم وغرائبهم، كان يقول إنه يجلس فوق الطائر، يشاهد الزمن يمر على تونس والقرى المجاورة، حكى أحداثًا كثيرة وقعت فى الماضى والحاضر والمستقبل بالقرى، أظهر ألوان اللوحة المبدعة الخافتة المائلة للبياض بزوايا مختلفة عن الدكتورة "هدى"، قال إنه يشاهد طائرًا كبيرًا مثل الشمس، والخيوط المحيطة به تتدلى منه لتظلل المكان، لكن الطائر لا يغيب مثل الشمس، ولا ينام كالقمر.

أبدع "ربيع" وهو يشق اللوحة بقلبه، ليكتشف العطر الذى يصدر من الفنان وهو يخط اللون الأبيض الجذاب فى خلفية اللوحة، فى الصباح حين نظرت إلى اللوحة شاهدت كل الحكايات والألوان والمشاهد التى ذكرها "ربيع"، كان إلهامًا مشتركًا للجميع لنقطع الظلام ونشق الفجر، لتغرد العصافير معلنة نهاية الليلة.

فى هذا الوقت كانت "إيفلين" تتلقى اتصالاً هاتفيًا من شخصية مرموقة ؛ لأن ملامح وجهها وصوتها تغيرت بدرجة غريبة أذهلت "آن" و"ربيع"، وفجأة اختفت من القصر دون أن تستأذن أحدًا.

"دياب"

تلقيت اتصالاً تليفونيًا من الدكتور "عبد العال" ، اعتذر وقال: "إن لجنة البحث التى كانت قد أمرت بإيقاف "جبر الرضا" بقرية الخضر اجتمعت بالأمس، وقررت العمل من جديد واستبدلت مكان الخضر قرية تونس، لم أفهم مغزى كلامه، لكننى قلت: "سوف أعود بعد أيام من أجازتى لأعرف ما هو دورى بالضبط"، رد بصلافة: "لو فتحت إيميلك لفهمت كل شىء يا "جو"، وأغلق السماعة ضاحكًا كأنه يتهمنى بانشغالى خلال الفترة الماضية بحبى الجديد.

هناك إشارات لضبط الوقت فى هذا المركز الغريب، يحسون البشر بطريقة باهرة، يعرفون موقعك بالضبط، يحللون ببراعة ما يجرى حولك ليلقوا عليك بالمهمة فى الوقت المحدد لتلعب دورك باقتدار حسب الخطة وبالتالى هم يفقدونك أو يحصلون عليك ، وفى الحالتين أنت عبد لألوان ومسارات اللوحة التى رسموها فستسير كالأعمى رغم أنهم عبدوا الطريق، كيف عرف باهتمامى بقرية تونس ليزف إلىَّ خبر نقل البحث إلى المكان الذى اعتقدت أننى جئت إليه بحريتى لأكتشف أسراره بنفسى؟ كانت المفاجأة بالنسبة لى أن "ربيع" المترجم انتظر معنا، شىء مدهش أن يشاركنا هذه اللحظات، قلت له حين رأيته فى الصباح أنا و"آن": "متى ستعود للقاهرة؟" قال: "بعد غد، فأنا على موعد غداء مع "دياب" و"يوسف" بعد الظهر، سنزور قصر "قارون" والمقابر البحرية خلف البركة، إن هذا المكان يخلب عقلى"، نادى أحد السائقين على "ربيع" فاستأذن وذهب إليه، وتحدث لدقائق، ثم غادر السائق مبتهجًا.

بينما عاد "ربيع" طالبًا صب كأس برندى، قلت بفضول: "أليس هذا السائق يُدعى سعيد؟" قال: "هل تعرفه؟" قلت: "عرفنى عليه يوسف بالأمس، كان مخمورًا وآثار الإرهاق تظهر عليه بعد نومه القليل".

قال بتلقائية: "إن سعيد السائق صديقى الوحيد فى هذا المكان الغريب، أيامًا كثيرة أتصل به لأعيش هنا عدة أيام فى صحبته وصحبة زوجته وابنته "صفاء" أميرة الأبعادية"، نظر ناحيتى بشك وقال: "أتعرفه؟" قلت: "سعيد المتخصص فى إحضار كل شىء، بائع ومشتر لكل ما يجرى هنا"، رد "ربيع" باستهزاء على فلسفتى قائلاً: "من منا لا يتمنى أن يكون "سعيد" الذى فُتحت أمامه أبواب السماء، عاش كملك بالقرية القديمة يسهر طوال الليل أمام دكانه يشرب المخدرات ويصاحب أبناء الليل والسائقين، يجرى شمالاً ويمينًا بين القرى بعربته النصف نقل التى اشتراها بعد أن باع القيراطين الحيلة.

أصبح دكانه المفتوح طوال الليل والنهار علامة على البراح، باعت زوجته الأنواع المختلفة لاحتياجات أهالى القرية القديمة من الأرز والمكرونة، والمنظفات والأدوات المكتبية والعيش الفينو، تأخذ ناتج الدكان لتصرف على البيت، حين كبرت ابنتها "صفاء" ساعدتها على إدارة الدكان والبيت؛ لأنها كانت تثق بأن "سعيد" هجرها لكسب العالم والاستمتاع بالحياة وحده.

نام أيامًا كثيرة خارج البيت، توسط بين الأهالى لبيع الأرض والبيوت، وشراء الأثاث، وبيع الحبوب، يقوم بعمل كل شىء، لا يمكن أن يقف أمام قدرته الغريبة فى الإقناع أى عائق، أبدع فمنَّ الله عليه بقدرات مختلفة ميزته عن باقى أهالى الأبعادية.

حين طلبه "يوسف" ليتوسط عند موظفى الجمعية الزراعية والحى، لتبوير الأرض والسماح ببناء قرية الفنانين عرف "سعيد" أن الباقى من العمر سينعم فيه بالعشق ومعاشرة الأكابر، وكسب الآلاف من الجنيهات.

فى هذه الليلة أغلق الدكان وأرسل ابنته للمبيت عند أخت زوجته وطلب من زوجته أن تتزين كأميرة؛ لأنه يحس الليلة بأن طاقة النور بالسماء فتحت عليه غرائزه واحتياجه قريتها الصغيرة.

تحدث "سعيد" وسط الأهالى على المقهى كأن الرب تذكرهم أخيرًا باختيار الخواجة والباشا صاحب الأطيان قريتهم ليقيموا عليها بيوت الفنانين، كان يروج للفكرة باقتدارٍ غريب جعلته مبعوث الآلهة التى أسقطت هذه القرى من ذاكرتها وتركتها للنسيان والهجر.

كان يحكى عن الخواجة والنزلاء الجدد والفنان "يوسف" ابن قريتهم كأنهم ملائكة أو أبناء قديسين يجب مساعدتهم لبلوغ الأمل، كان على علمٍ ويقينٍ بأن تلك الاختيارات تمت برضا الأجهزة، لذلك قال لعضو المجلس المحلى الذى (استقل) مبلغ الرشوة: "سوف يصدر إذن البناء برغبتك أو برفضك، من الأفضل أن تأكل اللقمة حتى لا يحرمك الباشا منها".

قاطعت "فاتن" حواره الشجى حول السائق وقالت لـ "آن" بصوت قوى: "الفطار جاهز يا هانم، "نظر إليها "ربيع" مستهجنًا تطفلها، فقلت لـ "فاتن": "هل تعرفين سعيد؟" ضحكت وقال باستهزاء: "من منا لم يتمن أن يكون سعيد!"

لا أدرى لماذا قررت "آن" قضاء النهار بمنزل "فرنسو"، ورفضت رحلينا لبيتها فى تونس، قالت: "إن بيتها كالسوق بسبب اللوحات والكتب، وأدوات الرسم وورشة الأطفال التى تعقدها كل ثلاثاء؛ لتعليم الفتيات فنون صنع التماثيل من الصلصال، حين شاهدتها وهى تمسك يد طفلة صغيرة وتعجن الصلصال وتصنع منها حملاً جميلاً، قالت: "لا تتعجب أنتم من أبدعتم فن النحت، لكنها أكدت أن منزل "فرنسو" مجهز بكل شىء للراحة، هذا خلاف أنك ستسافر غدًا ، وخلال اليومين رتبت لك زيارات كثيرة ، لا تقلق فلن تجد وقتًا للمكوث فى القصر للتأمل وسط الزهور، ضحكت بعد أن أنهينا إفطارنا، وقالت: "يجب أن تنام قليلاً فأنت مرهق"، أخذ "ربيع" كأسًا جديدة من زجاجة "فرنسو" العتيقة، وقال: "عندى موعد مع دياب ، سوف يأخذنى لنزور العديد من الأماكن الأثرية"، تساءلت ضاحكًا من حديثه: "من يكون دياب الذى تُذكرنا به كل دقيقة؟ أهو النبى الجديد؟! يجب أن تنام كى تتمكن من الاستمتاع بالزيارة".

فتح عينيه على آخرها ليوقف استهزائى ، فقال: "دياب ابن عائلة كبيرة تمتلك مئات الأفدنة، جده كان أهم شخصية فى عصر الخديوى الذى وزع الأرض الزراعية على بعض أتباعه، ليُكون طبقة للملاك الزراعيين ليحموا عرشه، كان نصيب جده عزبًا وأطيانًا وآلاف الأفدنة تركها الخديوى بفلاحيها ليديرها ويصبح سيد هذه البلاد، رغم علاقته الوطيدة بالقصر الملكى فإنه كان ضمن كبار الملاك الذين خانوا العرش لصالح الإنجليز الذين احتلوا البلاد، وأصبح جده محميًا بفعل نفوذه وعلاقاته بالضباط الأجانب الذين كان يصدر لهم القطن ومحاصيل الفلاحين بأبخس الأثمان؛ لينال شرف حمايتهم ، ورَّث الجد أبناءه الستة كل صفاته، وزع تركته الكبيرة عليهم، توفى تاركًا تلك الإمبراطورية بعد احتلال الجيش المصرى عرش السلطة، وسحب معظم الأراضى لصالح الفلاحين فمات لأن قلبه لم يتحمل هول الصدمة.

قال لأبنائه وأحفاده وهو على سرير الموت: "أى قسوة وجبروت تملَّكت قلوب هؤلاء العسكر؟ كيف لا يُقدرون الثمن الذى دفعته لنيل هذا الجاه؟" لكنَّ أبناءه استولوا على الكثير من الأرض وكتبوها بأسماء وهمية، لم يتمكنوا من ذلك لولا رشوتهم لبعض الضباط الذين سكتوا عن جرائمهم.

ولد "دياب" وسط هذه العائلة وكان عمره عشر سنوات حين احتل العسكر العرش ، وشاهد بنفسه تصرفات والده وأعمامه لتهريب الأرض ورشوة المسؤولين ودفع أى شىء من كرامتهم مقابل الحفاظ على أكبر قدر من الأراضى باسمهم أو تحت ولايتهم.

حين بلغ الثامنة عشرة أرسله والده لأمريكا ليستكمل تعليمه، عاد بعد خمس سنوات كابن بارع لعائلة "دياب" فى إعادة مجدها، احتل منصبًا فى حكومة الجيش الجديدة، استطاع بحيلته التى تعلمها فى الجامعات الأمريكية أن يصبح وزيرًا يدير مقدرات الزراعة فى البلاد، أعاد الأرض والعز للعائلة، بنى قصرًا كبيرًا ببلدته القديمة، تزوج ابنة أحد الضباط الكبار بجهاز المخابرات، عاش كملك مُتوَّج على أراضى الفيوم.

استكمل "ربيع" بعد أن رشف كأسه مرة واحدة كأنه يلقى الحكمة: "دياب رمز للإدارة الحديثة، إنه السبب فى بناء أجمل بيوت قرية تونس، أتعرفون أن علاقته بـ "فرنسو" توطدت بأول اجتماع لجمعية الصداقة المصرية الأمريكية التى عقدها "دياب" فى قصره بالأبعادية على شاطئ البركة؟ عرض "فرنسو" عليه بناء قرية الفنانين، كان "دياب" يعلم الثمن فالمقابل مزيد من الحماية من السفارة الأمريكية التى تدير دفة البلاد، فقبِل دون تردد ، وقال للخواجة: "البلد كلها تحت أمرك، ضحكا وهما يشربان نخب الصداقة، فى اليوم التالى كان "فرنسو" فى مقابلة مع "يوسف" ليشاهد صوره حين أنبأه بخبر بناء قرية الفنانين، أحس "يوسف" من نبرة الصدق التى أحاطت بصوت "فرنسو" بأنه أول من يعلم بالخبر، فطار فرحًا لتفضيله على "دياب" لتميزه وإبداعه فى تصوير الفلاحات الحزينات.

صرخ "سعيد" أمام بوابة القصر ليلحق بالموعد المنتظر، انتفض "ربيع" حين دخلت "فاتن"، وقالت بصوتٍ آمر: "سعيد ينتظر سيادتك".

"عبد العال"

عاد الهدوء مرة أخرى لقصر "فرنسو" بعد أن قامت "فاتن" بمساعدة حارس البوابة بتطهير الأرض من دنس الليلة الماضية، لكن الأهم أن "ربيع" قد غادر القصر.

قالت"آن":: "أنت حكايتك طويلة"، قلت: "أنت تعرفين كل شيء "، قالت: "باستثناء ما بينك وبين عدولة "، قلت: "باستثناء علاقتها بفرنسو وقصر المعادى، وبيت اللقطاء ومرسمك، وسرقة الآثار وبناء قرية الخضر، لا يوجد عندى شيء"، قالت: "ألم تمل إليها؟" قلت: "كانت رائعة"، قالت: "تركت لك رسالة ".

كانت الكلمة التى نطقتها "آن" ببساطة مدهشة "رسالة"، جعلتنى أستعيد الليلة الأخيرة سريعًا، والتى اختتمتها "عدولة" بتسليمى الكيس الملفوف على مظروف، وقالت: "افتحه فى الصباح، وافعل ما تشاء فلم أعد أتحمل".

حين ذهبت للمنزل الملاصق لمنزل الشيخ "موسى" وضعت الخطاب فوق الدولاب بحرص، وقلت لنفسى سأقرؤه فى الصباح، عند مغادرتى المنزل فى الصباح الباكر بعد أن أيقظنى السائق نسيت رسالتها، قلت: "بالفعل تركتها معى، لكننى نسيتها بمنزل الشيخ موسى".

دخلت "فاتن" علينا شرفة القصر، قائلة: "أتريد أن تعرف باقى القصة؟" قلت: "من قتل عدولة؟" قالت: "لا أحد يعرف ولكنهم اتهموا شرف بن سيد الصعيدى، وقبضوا عليه وألقوه بالسجن، بذل زوجى مجهودًا كبيرًا، ليلف الحبل حول رقبته، ويحرمنى النظر فى وجهه "، قلت: "لماذا يقتلها شرف؟" قالت: "اسأل المخبر رشاد وزوجى، كانا يحاولان طمس فضائحهما".

اندهشت "آن" وهى تتفرج علينا، وقالت: "من حق الرواد أن يعاملوك بمنتهى الحذر، فأنت تعلم عن فاتن وعدولة الكثير"، قالت "فاتن": "صباح مقتلها جاء ضابط شرطة ومخبرون وجنود كثيرون، لم يغادروا الخضر حتى اليوم".

بنوا النقطة وسجلوا جريمة مقتل "عدولة" كأول خطيئة بقرية الخضر، استعان الضابط بالمخبر "رشاد" والشيخ "موسى" و"أمين" وزوجى؛ ليحيكوا الخيوط حول رقبة "شرف". لفَّقوا أقوال الشهود ليُرمى بالسجن بحكم الأوباش، "عدولة" كانت تحكى كل شيء عن جرائمهم، موكدة بأن هناك من يساعدهم بقرية تونس، لذلك حين أمرنى "رشاد" لكى أحضر لخدمة "فرنسو" و"دياب" فرحت كثيرًا، رغم امتعاض زوجى خاصة أننى سأرتاح من وجهه العكر عدة أيام"، قلت له: "سوف أبيت بأولادى عند خالى شافعى بقرية الأبعادية".

واستكملت: " حكت عدولة بحب عن إخلاصك واختلافك عن الآخرين، كانت تثق بأنك ستعيدها للمدينة بعد أن دفنوها بالخضر"، ودعتنا ونظرت إلى "آن" قائلة: "كانت تحبك وتعتبرك أمها وأباها فى هذه الدنيا التى خرجت إليها لقيطة".

تركتنا ونحن أسرى روح "عدولة" المطلة علينا من خلف الأشجار، قالت "آن": "ماذا تركت لك فى رسالتها؟" قلت: "لا أعلم"، قالت: "الجميع يعتقد أنك تملك الرسالة التى تحتوى على كل الأسرار والأسماء التى أدت إلى سرقة الذهب والآثار بقرية الخضر، وجبانة الموت خلف البركة".

الجميع متأكد بأنك تملك المفاتيح لإدانتهم وطردهم من النعيم، لذلك حين طلبوا منى أن أقوم بعمل عنوان لجلسة الجمعية المنعقدة بالليلة الماضية قمت بعمل تورتة كبيرة، ورسمت عليها المفتاح الذى تملكه برسالة "عدولة"، قلت لها: "الرسالة فوق الدولاب بمنزل الشيخ"، نادت "آن" "فاتن" وبدون مقدمات قالت : "إن رسالة عدولة التى تركتها هى سندنا لمعرفة القاتل وتبرئة شرف، لكن الرسالة فوق الدولاب ببيت الشيخ موسى الذى كان يعيش به حمدى "، قالت "فاتن": "غدًا ستكون الرسالة معكم ".

دخلت "إيفلين" ونادت بحب على "آن"، استقبلتها بألفة وقالت لتزيد معرفتى بأم الجمعية وعمدة تونس: "إيفلين المتفانية، صاحبة أول منزل بقرية تونس، ضحكت وقالت لـ "إيفلين": "حمدى" صديقى أنتِ تعرفينه، فهو ضمن الرواد العشرة"، قالت "إيفلين": "لم أتعرف على ملامحه إلا فى الليلة الماضية، يقولون عليه الكثير"، ثم قالت لـ "آن": "تأخرتم علىَّ، أحتاج أن أجلس معكم قبل حلول المساء، وحضور يوسف ودياب وربيع من زيارة الآثار والبلدة القديمة".

خرجنا وراءها وهى تتقدمنا بخطوات قوية رغم العجز الظاهر فى وجهها، فتح "شافعى" حارس البوابة الدرف الأربع، وقال لها: "عايزة حاجة يا مدام؟" فقالت : "أرسل لى امرأة من القرية لتساعدنى على إعداد العشاء".

امتلأ بيتها المجاور لقصر "فرنسو" بالأوانى الخزفية وكأنه مصنع لإنتاج التحف، قالت: "حولت منزلى لورشة أُعلِّم فيها الصبية والبنات بالقرية ، ليتمكنوا من إنتاج شىء مختلف، شىء يشاركون بإحساسهم فى صنعه ، وأمرت امرأة مسنة بإحضار الشاى والنعناع بالشرفة ،نظرت إلىَّ بألفة غير معتادة، وقالت: "أنت ملاك مستر حمدى، واستأذنتنا لتجهيز العشاء".

لم تبذل "فاتن" مجهودًا كبيرًا مع خالها "شافعى" حارس البوابة ليتصل بزوجها وبالمخبر "رشاد" ليبلغهما بأن "دياب" بيه أمر "فاتن" بأن تظل بتونس عدة ليالٍ أخرى حتى يغادر ضيوفه، قالت له: "إن جميلك لن أنساه أبدًا إذا جعلتنى المرأة التى طلبتها إيفلين لتخدم على ضيوفها " رغم أن شافعى لم يفهم ما يجرى، لكنه كان سعيدًا بأن يقوم بتحقيق أمنية لبنت أخته الوحيدة.

حين أحضرت صينية الشاى بالشرفة لم تقدم نفسها، وقالت: "سركم فى بير، كانت عدولة أكثر من أختي وهى التى أعادت لى الحياة بقرية الموتى، سوف آتيكم غدًا بالرسالة".

استأذنت "آن" لتذهب لمنزلها للاستحمام، وإحضار بعض الملابس الداخلية من حقيبتها بعد اصرار "إيفلين" على الاستحمام بحمامها ، تركتنى وحيدًا وغادرت إلى قصرها.
عاد طيف طفلتى يحلقان حولي، فقلت : "أين هما الآن؟" أخرجت تليفونى واتصلت بالكبرى، كان تليفونها مغلقًا، اتصلت بطليقتى، أعطانى الرسالة الإلكترونية لإعادة الاتصال مرة أخرى، كنت أعرف أنها تقوم بعمل خاصية على رقم هاتفها تجعلنى أشعر بغلقه؛ حتى لا تسمع صوتى.
لماذا أتذكر دائمًا المشهد الأخير وهى تسبنى أمام أطفالى وأنا أحاول تهدئتها ومنعها؟! لماذا أتذكر دائمًا صوت ابنتى الصغيرة وهى تقول لى: "بابا هتروح فين يا بابا؟!" وأنا أجمع ملابسى، وأحاول مسرعًا الهروب من سماء الشقة التى تجمعنى بامرأة تُسمَّى زوجتى، احتضنتها وقلت : "لا تخافى فأنا دائمًا بجوارك"، ورغم انتظامى فى إرسال مصاريفهما على حساب زوجتى بالبنك فإننى لم أسمع صواتها منذ ستة أشهر.

خرجت من الحمام، فوجدت "آن" تطلب منى النوم ساعة لأستعيد روحى، واستكملت "إيفلين": أمامك الليلة مباراة كبيرة مستر حمدى، فسوف تقابل يوسف وربيع ودياب رمز الأب المؤسس لهذا المكان الرائع"، واستكملت بثقة: "هم مدعوون على العشاء معكم فى منزلى".

صمتت برهة وقالت: "المفاجأة الحقيقية الليلة هى وجود دكتور عبد العال، اتصل بى منذ ساعة ودعوته ليتعرف بنفسه على صباح ليلة السبت الأخيرة".

الدكتور "عبد العال" الذي لم تفارق الابتسامة المفتعلة وجه ، لم يقل قط فى حياته رأيه مباشرة، يحيطنا دائما بالأكاذيب لنتعلم الحقائق، يقول مفتخرا إنَّ العالم بُنِي على أسس كبيرة للخديعة ، يجب اكتشاف أسرار الطبيعة لنفهم روح العلم، صاحب نظرية التاريخ الشفوى للشخصيات المؤثرة، ويؤكد بأن التاريخ يقف كثيرًا أمام هذه الشخصيات ليرسم فى براعة اكتشاف الناس لطرق خلاصهم واختيارهم لمصيرهم.

شارك الباحثون الأوائل فى تصميم قرية الخضر، الشىء المذهل أن "عدولة" وصفت صوته وملامحه أثناء زيارته المتكررة لـ "فرنسو" فى منزله بالمعادى وهى تخدم عليهم، قالت إنهم كانوا يختلون ببعض فى أوقات كثيرة، لكننى لم أتصوره قط وهو يعاشر أحدًا حتى ولو كان "فرنسو" الناعم.

رغم اهتمامى بوجوده للتعرف على التغير فى اتجاهات بحث "جبر الرضا" فإن السرير الذى وضعت عليه جسدى كان أهم أمنية تحققت خلال هذا الصباح!

"بيجاد"

حين غطت عينى فى النوم تداعت الصور المبهجة للفلاحين المجاورين لقرية تونس إلى أحلامى، كانت وجوهم مبهجة وهم يشقون القنوات بفؤوسهم أو يحصدون القمح، لم يفرق بينهم وبين فلاحى الخضر أى أثر، حتى عيون الجواميس والحمير والأبقار تشابهت مع عيون أقرانهما بقرية الخضر!

شاهدت عشرة فلاحين يسيرون صفًا واحدًا، ويخلعون ملابسهم رافعين المناجل كأنهم فى طابور عسكرى، ويصرخون "آه"، جرى أولادهم وزوجاتهم وراءهم يتوسلون إليهم أن يعودوا ولا يستكملوا الطريق للنهاية، كان الفلاحون العشرة من قرية الأبعادية المجاورة لقرية تونس مصرين على المُضىّ قدمًا فى طريق التحدى، رفع أحد أطفالهم لافتة كبيرة وراءهم مكتوبًا عليها "لن نخرج من أراضينا".

لا أعرف لماذا تشابهت وجوههم مع فلاحين آخرين قابلتهم منذ عدة سنين رفضوا الخروج من الأرض، قالت إحدى النساء من خلفهم: "لم يرحمو الفول الحيراتى وكيزان الذرة، استدعو آلاتهم وداسو عليها ليقتلو أرواحنا، بكت طفلة فى حضنى، وقالت: "ضربوا أبوى على رأسه، فسقط أمامى على الأرض ودمه النازف يملأ ملابسه البيضاء، رفسنى كلاب "دياب" باشا فى بطنى، حين حاولت وقف الدم".

كان الرجال العشرة يواصلون الطريق وفلاحون القرية يتوسلون إليهم أن يعودوا إلى ديارهم، لا يهم سلب الأرض، المهم الستر، لم يكن أحد منهم يسمع التوسلات ، كانوا فخورين برفع المناجل فى وجه "دياب، والإصرار على عدم الخروج ، لا أعرف كيف أتت الجرارات فجأة، وقابلتهم قوات كبيرة مُسلَّحة بالعصى والبنادق، حوطتهم، ونزلت عليهم بالشوم ضربًا والفلاحون العشرة يقاومون بأنوف شامخة حتى آخر نفس للنهاية.

القرية كلها شاهدت بذهول الدم النازف والأرواح التى هجرت أجسادها للسماء، لم تترك جميع القوات التابعة لـ "دياب" أرض المعركة إلا بعد أن أصبحت جثث الفلاحين العشرة بقايا لأجساد بشرية، قال "دياب" من بعيد وهو يركب عربة فارهة من مكان مرتفع: "تأكدوا أنهم ماتوا"، فذبحت العصابة رقاب العشرة كى يطمئن الباشا، عاد الأهالى مفزوعين أمام مطاردات رجاله، لكن بنتًا صغيرة لقيطة لم تتحرك من مكانها وقفت صامتة وقوات "دياب" تطارد الأهالى، اقتربت من الرجال العشرة وقربت رؤوسهم من أجسادهم مرة أخرى، فجرى الدم فى عروقهم، ووقف الرجال العشرة بمناجلهم رافعين رؤوسهم للسماء، عندما شاهد "دياب" ورجاله الملثمون بالغدر مشهد عودة الروح لأجسادهم الممزقة هربوا مرعوبين، لكنهم توعدوا البنت اللقيطة فى المستقبل، تذكرت المشهد كاملاً ووددت أن أحكيه لـ "آن" حين صحوت من النوم كى تقوم بنقله للوحاتها، لكنها المشغولة بمقتل "عدولة" ورسالتها أيقظتنى، وقالت بلهجة مصرية: "قوم يا سى حمدى الليل دخل.. قوم يا سيدى نوم العوافى"، لم تعطنى فرصة لأسرد حلمى، كان "دياب" و"يوسف" و"ربيع" قد وصلوا والحفلة بدأت.

أمسكتْ يدى، فخرت روحى مستسلمة لعيونها، وقالت: "بعد الحفلة سنذهب لبيتى لنكشف تلك الخلايا التى تجعلنا شغوفين بالحياة، وتحكى لى عن عدولة"، أعاد الاسم حلمى بالرجال العشرة مرة أخرى، فتذكرت "دياب" و"يوسف" فلبست سريعًا كى أقارن بين وجه "دياب" الذى شاهدته بالحلم، ووجهه الحقيقى.

استقبلتنى "إيفلين" بترحاب بالغ، وقالت: "الآن تستطيع أن تسهر دون ألم"، رد "ربيع": "النوم يأتى إلينا بذكريات وأوجاع، يجب أن نبحث عن دواء يجعلنا دائمًا يقظين"، نَهَرَه "دياب" وقال: "أنت تريد تعذيبنا"، قالت "إيفلين": "دياب باشا صاحب كل هذه الأراضى، تعلم بالجامعات الأجنبية خارج البلاد"، رد "دياب" بتواضع: "شهادتك مجروحة لأنى أحبك"، ضحك "يوسف" وقال: "نحن جميعًا نحبها، فهى أم أهالى تونس الأجانب والمصريين".

اعتذرتْ عن غياب الدكتور "عبد العال"، قالت: "طلب منى أن أستقبل "بيجاد" باشا رئيس حزب الأحرار؛ ليتعرف على ما يجرى فى قريتنا، قالت: "إنه عضو جديد بجمعيتنا ويجب جميعًا أن نحتفل به الليلة، فى هذا الوقت خرج "بيجاد" من الحمام لامع الوجه مبتسمًا، ارتسمت على وجهه علامات المداهنة، وقال بأدب: "حمدى بيه غنى عن التعريف".

جلسنا مستمتعين بالأنتريه الأخضر الفاتح، القريب من الأرض نحتسى الشاى، قالت "إيفلين": "حين جئت لأول مرة القرية اشتريت المنزل دون تردد، وقررت أن أستكمل حياتى هنا، كان لانطباعات "دياب" و"يوسف" و"فرنسو" تأثير السحر على قرارى، قررت فتح ورشة لصناعة الخزف والتماثيل، وتعليم أبناء القرى المجاورة مهنة أجدادهم، لا أستطيع نسيان فضل "عبد البصير" الفلاح المتواضع بالقرية القديمة، الذى تعلمت منه أشياء كثيرة للتأقلم مع الحياة، كان المفتاح الذى تعرفت به على الناس لأكتشف سر إيمانهم بمصيرهم، هذه البلاد هى خير ما أنتجته البشرية، الناس هنا ممتنون رغم الحرمان، إنهم لا يرغبون إلا فى الحياة، ولا يحتاج ذلك لإمكانيات كبيرة، فيكفى أنك حى لتنعم بالرضا!

قاطع "دياب" حكاياتها الفلسفية، وقال فى مواجهتى: "حمدى بيه منين ؟" قلت: "أعيش بشقة بمدينة نصر، وأعمل بمركز البحوث الأمريكى، وأشرف على بحث "جبر الرضا" بقرية الخضر الذى يتابعه "فرنسو" ممثل السفارة، والذى توقف بسبب إجراءاتٍ أمنية، أجريت مقابلات كثيرة بالقرية، وتعلمت من الفلاحين الكثير".

قال "بيجاد": "أظنك عشت بالخضر عدة أسابيع، احكِ لنا كيف يحس الناس بمتع الحياة التى تحكى عنها إيفلين"، قلت ببساطة: "إنهم البشر الذين يستحقون الحياة"، تدخَّل "يوسف" ليخفف وطأة انطباعى، وقال: "البشر جميعًا يستحقون الحياة، ولكنه القدر الذى يضع كلاً منا بمكان وزمان من غير إرادته، تدخلت "آن" وقالت: "يجب أن نأكل، معدتى تصرخ، ضحكنا وأخذتنا "إيفلين" على حجرة الطعام الواسعة، كانت هناك طبلية كبيرة رُصَّت عليها أصناف مختلفة من اللحوم والخضراوات والسلاطات، قالت "إيفلين": "أسرفت اليوم على المائدة نظرًا لتكرم "بيجاد" باشا وقبوله دعوتى"، قالت "آن": "رائحة الأكل تنعشنا لأن روحك المبهجة اختلطت بالطعام".

أكلنا صامتين فقطع "ربيع" الصمت، وقال بمواجهتى: "هل تتذكر امرأة تسمى عدولة قابلتها بالخضر؟" كان السؤال كالسيف الذى منع الطعام من النزول فى حلقى، قلت: "نعم"، قال: "تعرف أنها قُتلت؟" قلت: "سمعت عن ذلك"، قال: "إنها جلست معك ليلة كاملة قبل مقتلها، عن ماذا كانت تحكى؟"

مسحت يدى منهيًا طعامى، فقاطعتنى "إيفلين" وقالت: "أنت فى بيتك لازم تاكل"، قلت: "بطنى امتلأ تسلم إيدك"، قالت: "اشكر معى المرأة العجوز رفيقتى، والست فاتن ابنة قرية الخضر، أعتقد أنك رأيتها هناك"، كانت "فاتن" تراقبنا من بعيد، وتتحسّس الخطر فتدخلت

وقالت: "سى حمدى رجل طيب سمع كثيرًا من أهالى القرية، لكن الشىء الوحيد الذى جعلنا نحبه كميات الطعام والسكر والأرز التى كان يحضرها من القاهرة ويوزعها علينا".

قالت "آن": "إننى مضطرة للمغادرة مع حمدى لمنزلى ليشاهد رسوماتى، قال "يوسف": "هل تتركون دياب بيه، وبيجاد باشا؟" ردت "آن": "أنتم بضيافة إيفلين الحاصلة على لقب المرأة الأولى التى وطأت قدماها تونس، ودياب بيه صاحب المكان ونحن الضيوف".

نظر "بيجاد" إلىَّ نظرة أرعبتنى، كان شغوفًا بعمق العيون، أدخل الرعب لقلبى، طبطب على ظهرى وقال: "الوقت طويل أمامنا، لن نخسر شيئًا إذا انتظرنا للصباح، سوف أقابلك بالقاهرة، نحتاجك لتصبح المستشار العلمى لدراساتنا الحزبية"، قال كلامًا كثيرًا لكنه قال بتحدٍّ: "إن حكاية الخضر يجب أن نستكملها؛ لنعرف كيف يسير "جبر الرضا" بين الناس الطيبين".

نهرتنا "إيفلين" وقالت لـ "آن": "لا يمكن أن تتركينى، نحن جميعًا نحتاج لأن نحكى مع "حمدى" لنتعرف عليه، فمنذ الليلة الماضية وهو يخلب عقولنا، إن "فرنسو" قال إن سر مفتاح الحياة يكمن فى قلبه، وإنه يحمل الرسالة التى حيرت البشرية"، رد "دياب": "يمكنكم الانتقال لدارى لنستكمل السهرة، قالت "إيفلين": "أنت تشتمنى مستر دياب"، تدخلت قائلاً: "يجب أن أنام، لدى عمل فى الصباح بالقرية" ، وقف الجميع مذهولين من هروبى مع "آن"، ظلَّت وجوههم معلقة علينا وهم صامتون، ونحن نغادر حجرة الطعام والصالة، ومدخل المنزل المملوء بالتحف والخزف والتماثيل.

فتحنا باب قصر "إيفلين" بهدوء، وسرنا بالشارع لمنزل "آن" غير مصدقين أننا نفذنا من المحاكمة، سمعنا صوت "يوسف" فى الخلفية ونحن بالشارع يودعنا، ويقول: "سوف أمر عليكم فى الصباح، الوقت ملكنا، رتبت مع دياب وبيجاد وربيع زيارة محترمة لكل معالم المنطقة، سوف ألقاكم قريبًا".

"دسوقى"

ابتعد عنا بيت ومرسم "آن" رغم قربه من منزل "إيفلين"، فتحت الباب ودخلنا، أخذتنى بحضنها، التحمت بى، أحسست بجسدها الناعم، فتنتنى قائلة: "أنت فى خطر، الجميع عرف السر، الرسالة التى تركتها عدولة، لا يمكن لدياب أن يحدثك عن هذا الموضوع إلا إذا كان الوضع خطيرًا، يجب أن نرحل الليلة ".

قلت لها: "لا تهولى الموضوع، فالحديث هو الذى شدنا إلى موضوع عدولة، لا تخافى، كانت "آن" تحس بما يجرى حولها وترسم الصور المختلفة، لتتفادى الشر الذى أظهرته ضدها السنوات".

سحبتنى للصالة الواسعة وقالت: "تعال بحضنى يجب ألا يعرف أحد مكانك حتى نعرف ما تركته عدولة، قلت لها: "إذا كان يهمهم معرفة مضمون الرسالة، فإنهم لن يؤذونى على الأقل حتى يحصلوا عليها" ، قالت: "لكن الحيطة واجبة، سوف نبيت بقصر الدكتورة هدى الملاصق لمنزلى، لن يحس بنا أحد فسوف ندخل إليه من السطوح".

أغلقت باب منزلها وفتحت التلفاز، أخذتنى من يدى لتطلع سلالم الدور العلوى، وجدت نفسى تحت السماء والنجوم تتلألأ من حولى، كان منظر مياه البركة والجبل من خلفها بديع ، قلت لها بصوت هادئ: "منظر القمر مبهر"، أغلقتْ فمى بأصابع يديها واستكملت السير لمدخل الدور الثانى بمنزل الدكتورة، أشعلت شمعة، وقالت: "سننام حتى الصباح، ونحصل على الرسالة من فاتن ونسافر للقاهرة"، أخذتنى فى حضنها، كادت ضلوعى تخرج منى لتعيد الحياة إلى قلبها المجروح، تمكنت "آن" من خلع ضلعى الأيمن وأنا أتحسَّس جسدها الرائع وهى تئنُّ من النشوة، كنا سعيدين رغم أننا لم نصدر أى صوت.

أخلعتنى ملابسى كاملة، لامست أعضائى، أخرجت السموم من جسدى فتطهرت، تحولت الإنسية لملاك، ثم استغرقت بالنوم الى جوارى، همست قبل أن تغطَّ بالنوم: "رغم الخوف لم أحس بعرق أنعش روحى سوى عرقك، أغمض عينيك فالملائكة تحرسنا".

أخذتُ الشمعة، بحثًا عن الحمام لأتبول، حين نزلت للدور الأول بمنزل الدكتورة، فوجئت بعشرات الرجال يحيطوننى بسرعة البرق، ويُكممون فمى ويرشون على وجهى مسحوقًا غريبًا، حين أفقت من الغيبوبة، وجدت نفسى محاطًا بوجوه خشنة ذات ملامح مصرية وأجنبية، كنا بقبو يتوسط الصحراء، كانت رائحة البراح ومياه البركة تحيطان بالمكان، قال أكبرهم: "احكِ لنا حكاية الليلة الأخيرة فى قرية الخضر"، قلت: "من أنتم؟" قال أصغرهم: "أنت هنا لتجيب فقط عن الأسئلة، لا تسأل أبدًا"، سمعت صوت "دياب" بالحجرة الجانبية فقلت: "إن دياب صديقى يمكنه أن يحكى عنى كل شىء".

دخل "دياب" وقال: "احكِ ما تعرفه لممثلى الأجهزة، لن تتمكن من الإفلات من المصير الذى رسموه لك"، نهره كبيرهم ليغادر الحجرة كأنه مخطوف مثلى، قلت: "أنا أعمل بمركز بحوث أمريكى، ويمكنكم التأكد من إخلاصى بالاتصال بمدير المركز، أعطونى التليفون، سمعت صوت الدكتور "عبد العال"، اعتذر وقال: "إن الموضوع خرج من يديه، يجب أن تحكى كل ما تعرفه، نحن جميعًا مهددون، الرسالة التى بحوزتك سوف تقينا جميعًا شر الموت".

فوجئت بـ "فرنسو" يدخل ويقول فى مواجهتى: "أخفيت عنا ما جرى بينك وبين عدولة خاصة مضمون رسالتها، سلمنا إياها وسوف نتركك ونرتب لك حياة جديدة"، قلت: "إننى عضو بجهاز أمنى سيادى كبير، أعطونى التليفون لأسمع طلب رئيس الجهاز" فقال: "إننا شبكة واحدة نعمل لتأمين العالم، اعتبر ما يحقق معك هو ممثلى شخصيًا"، انبرى المحقق ذو السحنة الأجنبية، وقال: "كل شىء نعرفه إلا مكان الرسالة أين خبأتها؟ فتشنا منزلك ومكتبك ولم نعثر على شىء".

انتابنى الإحساس بالخطر، قلت لهم: "خبأتها بمقلب قمامة قريب من سكنى بمدينة نصر، كانت الأجهزة تتحرك حولى لتعرف العنوان"، قال أكبرهم: "أين يقع هذا المقلب؟" قلت: "بشارع عباس العقاد بالقرب من مبنى أمنى".

كنت أعتقد أنهم سيأخذوننى إلى هناك لأنتقل من هذا المكان الموحش، لكنهم أحضروا لاب توب، وقالوا: "منطقة أمبى أمامك على الجهاز، وأنت تقف هنا، أشاروا إلى نقطة متحركة على الجهاز، أين مقلب القمامة الذى وضعتها فيه؟"
أيقنت فى هذا الوقت حقيقة الحلم الغريب عن لغة التواصل بين الأموات والأحياء، والأزمنة والأمكنة، فبالرغم من أننى الآن بمقبرة بصحراء الفيوم بالقرب من البركة فإنهم جاءونى بجهاز، ووضعونى كنقطة بالشارع أمام مبنى أمنى، ويطلبون منى أن أسير لمقلب القمامة الذى خبأت فيه الرسالة.

سرت بالشاشة فى الشارع الملاصق لحى السفارات، وعند أقرب مقلب قمامة وقفت، وسألنى كبيرهم: "أين خبأتها؟" أشرت إلى مكان بالقرب من يدى، فوجئت بالجنود والرجال يُفجرون الأرض تحت النقطة، لم يعثروا على شىء، قال كبيرهم: "أنت تُغرر بنا"، قلت: "يجوز أن تكون سيارات المحافظة قد رفعتها من هذا المكان"، دخل أحد الأشخاص وفوجئت بأنه الضابط "دسوقى" مرشدى بجهاز المخابرات، أذهلتنى عيونه الطيبة ووجهه البشوش، لكنه فجأة تحول عند النظر إلى عيونى، وقال: "سنعرف مكان الرسالة ومضمونها سواء مت أو عشت، من الأفضل أن تنجو بحياتك"، لم أرد من هول المفاجأة، فقال: "اتركوه الليلة لينام، وسوف نعود غدًا لنعرف الحقيقة، غادروا جميعًا بعد أن أغلقوا الحجرة وتركونى فى الظلام".

فجأة عاد الضابط "دسوقى"، وقال: "لا تخف، نحن نعرف كل شىء عن الجمعية الروحية وقرية تونس وبحث "جبر الرضا"، نحن ندير البلاد وهم يدعموننا لبلوغ التقدم فى التلصص لنتمكن من السيطرة، لا تخف ولكن أين خبأت الرسالة؟ إن العالم كله ينتظر حصولنا على السر ليطمئن".

جلس بجوارى وأعطانى سيجارة، وقال: "اسمى الحقيقى فتحى ، عندى ثلاثة أولاد، طلبوا منا منذ الميلاد أن نقوم بأدوارنا ورسالتنا فى الحياة، فلماذا ترفض السير؟ لماذا تقاوم؟" قلت: "ماذا أفعل؟" قال: " رسالة عدولة، إن العالم ينتظر قولك فلا تخذلنا".

أشار إلى تمثال امرأة بالجبانة، وقال: "إن زوجته تخونه مع العساكر الذين يخدمونها"، بكى وأطلق صيحة غريبة: "النساء كلهن عواهر إلا أمى، رغم أن أبى كان ينادينى دائمًا: "يا بن اللقيطة".

رفع مسدسه وقال: "من السهل جدًا أن نطلق رصاصة على رأسك وتموت وتنتهى القصة، لكنك مواطن يجب حماية حقوقك، أنت فى أمانٍ فلا تخف، ولكن إذا رفضت فأنا لست مسؤولاً عنك، أنت تعرف أنهم نقلوا آثار الأجداد وأخفوها، فليس صعبًا أن يخفوا نكرة مثلك".

تحول إلى وحش فبصق على وجهى، دللت أسنانه الواضحة بوسط وجهه المخادع على شراسته، أمسك رقبتى وقال: "حتى الصباح يا حمدى وبعد ذلك لن أكون مسئوولاً عن حياتك"، قبل أن يصل إلى الباب استدار وقال: "تعمل لحساب مَنْ يا خائن؟ نحن المخابرات ، وليس هناك أجهزة أعلى منا فى هذه البلاد".

اقترب من عيونى وكاد يغرس أصابعه فيها، وقال: "ألم نقل لك إنك عميلنا؟ لماذا تخفى الأسرار؟ هل هناك أحد غيرنا؟" دخل "فرنسو" وأخذه من يديه وأغلق باب الحجرة.

سمعت صوت محرك طائرة، لم أصدق ما يجرى، أكل ذلك بسبب رسالة امرأة لقيطة بحوزة باحث مجهول؟! لم يمر وقت طويل حتى فوجئت بفتح الباب، كانت "آن" و"فاتن"، و"ضاحى" و"سيد الصعيدى"، وبعض الفلاحين الذين شاهدتهم بأحلامى فى الليلة الماضية يحيطون بى، حضنتنى "آن"، وركبت السيارة بجوارها مع الفلاحين الذين أعرفهم، قالت: "لقد وصلنا فى الوقت المناسب"، حكت لتُهدئنى: "عند الفجر صحوت من نومى ولم أجدك، فهرولت لمنزلى"، قابلتنى "فاتن" وهى تبلغنى بأنها أحضرت الرسالة، وضعتها بحقيبتى، حكيت لها ما جرى، قالت: "أعرف مكانه"، كان المخبر وزوجى يحكيان عن جبانات الفراعين، خلف مياه البركة فى الصحراء التى يقيمون فيها مراسم القتل لأعدائهم، اتصلت بـ "ضاحى" و"سيد الصعيدى" و"هنية"، ليؤمنوا تحركاتها لثقتهم بأنك يمكن أن تعرف القاتل، كانوا متأكدين بأن "شرف" بن "سيد الصعيدى" هذا المخلوق الرقيق، الذى عاش بينهم كملاك لا يمكن أن يقتل "عدولة".

أخذت "فاتن" بسيارتى واتجهنا لمقابلة أقرانها، نزلوا من سياراتهم أمام بحيرة وادى الريان، وركبوا معى فى سيارتى ، واتجهنا للمقابر خلف البركة، منذ ساعة لمحنا الطائرة فتوقفنا لنفكر ماذا نفعل، لكن القدر لم يمهلنا فشاهدناها تغادر المكان بعد دقائق من هبوطها ، كان "ضاحى" يعرف حارس الجبانات الفرعونية فاتصل به وحضر مع عدد من فلاحى الأبعادية؛ ليساعدونا على فك أسرك.
قال "ضاحى": "طريق مصر أمامك فى الشرق، وطريق الخضر للغرب"، قالت "آن": "إن عدت لشقتك بالقاهرة فهم يعرفون مكانها، هل هناك أحد تعرفه يمكنه حمايتك؟" قلت: "لا أعرف "وتذكرت طفلتى فاستكملت: "لا أتذكر أحدًا الآن"، قالت: "أصدقائى جميعًا على علاقة بفرنسو والأجهزة، ولا يمكن أن أثق بأحد منهم أو على الأقل أورطه دون أن يعلم خطورة الموقف"، قالت "فاتن": "يمكن أن يأتى للخضر، يمكننا أن نخفيه عدة أيام"، أكد "ضاحى" قائلاً: "فليأتِ إلى بيتى، لكن سيد الصعيدى قال: "عندى بيت ثانٍ كنت أجهزه لشرف قبل سجنه؛ ليتزوج فيه".

قالت "فاتن": "أعرفه سوف أرسل لك الطعام كل ليلة، دون أن يرانى أحد"، قالت "آن": "ليس أمامنا سوى الخضر"، قلت: "وأنتِ"، قالت: "ليس هناك خطر علىَّ، سأعود لشقتى بالقاهرة وأتصل بالسفارة لتحميني"، ضحكت ساخرة واستكملت : "نحن نتمتع فى هذه البلاد بحمايةٍ استثنائية".

استاء الفلاحون من حديثها الساخر، فقالت: "يمكننا استغلال هذه الحماية لدعمنا"، قال "ضاحى": "لن يمسَّه الشر مادام معنا".

أنزلتنا "آن" عند مدخل بيت "سيد الصعيدى"، تركونى بعد أن فتحوا الباب، قال "ضاحى": "سوف تتكفَّل فاتن بإعاشتك، لا تخرج أبدًا، سوف ندخل بيتك بطريقتنا، أخذت آن موبايلى، جرَّدونى من كل شىء، أحسست برائحة "فاتن" وهى تعاشر "شرف" بعيدًا عن عيون زوجها والناس، تمددت على السرير، أحسست بالراحة، ودخلت فى نوبة نوم عميق.

القسم الثالث: الخلاص

"خالد"

أخذت "آن" بنصيحة "ضاحى" ورفقائه بالعودة عن طريق الطيور الجارحة الذى يربط الخضر بطريق الصعيد الغربى، فلا توجد عليه أية أجهزة أمنية، لكنه مملوك لعفاريت الليل والطيور الجارحة، وأرواح العناكب والأبراص والثعابين، قالت "حمدة" وهى تودعها: "النور شق الظلام وبدأ نهار جديد، فيمكنكِ أن تسلكيه حتى الصحراوى الغربى، وتتجهين من هناك إلى القاهرة فى أمان".

قالت "فاتن": "أغلقى هاتفك حتى لا يعرف أحد مكانك، إذا حدث لكِ مكروه فتذكرى "عدولة" ورسالتها، سوف ينصرك رب العالمين"، قال "ضاحى": "اجعلى قلبك مليئًا بالحب وهو دليلك إذا وقع الشر، ارضى بنصيبك لأنه مكتوب على جبينك"، ودعتهم واتجهت بسيارتها مخترقة بيوت القرية لتصل إلى أول طريق الطيور الجارحة.

تذكرت بحث "جبر الرضا" والفلاحين والفلاحات الذين يعشقون الحياة والنور، وعلمت بأن هذه المبالغ التى صرفت لإنشاء عدة قصور بقرية تونس كمتاحف كانت تكفى لمد هذه القرى بالمياه والكهرباء والصرف الصحى، وبناء المسارح وقاعات السينما، والمستشفيات والمدارس، وكان يمكن جعل الفيوم مركزًا إشعاعيًا ثقافيًا، لو كانت هناك ذرة إيمان واحدة عند "فرنسو" و"دياب" بآدمية هؤلاء البشر.

استعادت حكايات سرقة الآثار وجريمة نقل الذهب من الخضر بالطائرات إلى أماكن لم يعرفها أحد، وظن الجميع أن الرسالة تحتوى على السر الذى سيبرئ ساحتهم، تذكرت مقتل صديقتها ذات الرداء الأحمر الجذاب.

كانت الجبال تحيط بالطريق والشمس مازالت تواصل ارتفاعها فى السماء والطريق الخالى يدعو للوحشة، خاصة أنها لا تدرى ماذا ستفعل بالقاهرة، قالت لنفسها: "ليس هناك إلا السفارة ، سوف ألجأ إليها لأفهم ما يجرى، وأحاول إنقاذه ".

اليوم تعرف حقيقة ما جرى منذ عدة سنين حين عايشت بنفسها قصص الفلاحين العشرة الذين قطع لهم "دياب" ألسنتهم؛ لأنهم رفضوا الخروج من أراضيهم، دفع عشرة ملايين جنيه للأجهزة والبلطجية؛ ليقوموا بالجريمة ويصبحوا عبرة لمن يرفض أوامر الباشا، لم تكن تصدق أن هؤلاء الفلاحين العشرة الذين دخلت بيوتهم، وعاشرت أبناءهم ونساءهم هم من رفعوا المناجل فى وجه الكلاب، وقرروا المقاومة، قال "دياب" يومها: "إنهم بلطجية يرفضون تنفيذ القانون، قال "فرنسو" مؤكدًا رأيه فى تلك الليلة: "إذا لم يلتزم الناس بالقانون فلمن نحتكم؟ أين كانوا حين صدر القانون؟ لماذا لا ينتخبون مجلسًا نيابيًا يحقق رغباتهم ومصالحهم؟" كان كلامهم منطقيًا فآثرت الحياد.

استدعت فجأة حوارها مع "يوسف" حين قررت إقامة ورشة لتعليم الفتيات الرسم بالصلصال، قال "يوسف": "ما الهدف من التعليم؟" قالت: "أن يفهمن أن هناك طرقًا جديدة للسعادة وللاستمتاع بالحياة"، قال: "كيف ستفعلين ذلك؟" قالت: "أعلمهن أن ينطلقن بأرواحهن

خارج أجسادهن، ويتخيلن أنّهن حققن أحلامهن، ويطرن فوق بيوت القرية ليرسمن تلك الأحلام، ويشاهدن الورود والزراعات التى تملأ حقول قراهن"، قال "يوسف" بسخريةٍ : "وما فائدة هذا الانطلاق لبناتٍ يجهلن القراءة، لم ترد يومها لكن أحست بالغل تجاهه".

ظهرت البيوت على طريق الصعيد الغربى أمامها، فشعرت بالراحة والأمل فى بلوغ السفارة، أوقفت السيارة على أول الطريق بجوار كافتيريا متواضعة، استقبلها عامل الكافتيريا بلطف، أحضر زجاجة مياه، قالت له: "قهوة سادة من فضلك"، قال الرجل بإعجاب: "هذا الطريق لا يسلكه أقوى الرجال، كيف نجوتِ من الطيور الجارحة واللصوص وبدو الصحراء المرعبين، والرمال المتحركة؟" قالت ببساطة وبلهجة مصرية: "قلبى عمران بالحب!" ذهب الرجل سريعًا، ليعد قهوتها .

حينما عاد سألته عن دورة المياه، أشار لها باهتمامٍ على باب صغير بنهاية مبنى المقهى، رغم أنّ الحمام يمتلئ بالذباب لكن رائحته القذرة كانت تتبخر فى الصحراء بفعل البراح، كانت لا تستطيع أن تمنع نفسها من التبول، غسلت يديها بحوضٍ أمام الحمام، عادت لكرسيها تتحسَّس بلسانها طعم القهوة الزكى وسط هذه الأحداث.

أحست بالخوف فجأة، فقررت الاتصال بالسفارة قبل الوصول إلى القاهرة، حاسبت القهوجى وتركت له باقى الجنيهات العشرة، ركبت سيارتها وسارت على الطريق الغربى، متناسية فكرة الاتصال بالسفارة، حين وصلت إلى طريق الفيوم القاهرة وظهرت الأهرمات أمامها، تذكرت مرة أخرى السفارة، فتحت موبايلها لتتصل، ضربت الرقم وقبل أن ترد أوقفتها سيارتا جيب ، نزل منهما عشرة أشخاص، أظهروا بطاقتهم وقالوا لها: "نحن ممثلو سفارتك، أعيانا البحث عنكِ طوال الليل، أين كنتِ؟ كيف وصلت إلى هنا دون أن تلمحك إشارات أقمارنا الصناعية التى وضعناها على كل الطرق؟"

ركب ثلاثة معها فى السيارة، وتوجهوا لمبنى السفارة بالزمالك، كان سفير البلاد وممثلون عسكريون فى انتظارها، أحست بالخطر وتواطؤ الجميع، طلبوا لها كوب لبن واطمأنوا على سلامتها، أخذها مسؤول كبير لحجرته، حاول أن يفهم منها ما جرى، ادعت بأنها لا تفهم سببًا لكل هذه الأسئلة، سألها بوضوح: "أين صديقك؟" أجابت: "صحوت من نومى ولم أجده"، قال: "لماذا تركتما منزلك، وذهبتما للنوم بمنزل الدكتورة هدى أنت وهو؟" قالت: "كنا نحتاج أن نخون صديقتنا، فقررنا الذهاب إلى بيتها دون علمها، قال: "لماذا غادرتِ الفيوم هذا الصباح؟" قالت: "عندى عمل"، قال: "هل تركِّبين بسيارتك مانعًا لالتقاط إشارات الرادار أو الأقمار الصناعية؟" قالت: "لا أفهم ما تعنيه"، اعتذر لها وخرج من الحجرة لدقائق ثم عاد.

أغلق الباب وراءه وقال: "آمل أن تقبلى عذرنا، لكن هذه البلاد تمرح فى الفوضى، نحن هنا لنحمى رعايانا، أنتِ الآن فى أمان، لقد اطمأننا عليكِ بعد أن اتصلت بنا إيفلين صديقتك، وقالت إنك اختفيت فجأة من تونس، قالت: "هل يمكن أَن أذهب؟" قال: "على الرحب والسعة".

كانوا يعلمون أنها تخفى الأسرار، لكنهم كانوا يثقون بأنها الطريق إلى رسالة "عدولة".

حين خرجت من باب السفارة وجدت المخرج "خالد" الذى أبهر الدنيا بعرض مآسى البشر فى فيلمه الأخير "الحذاء الردىء" بانتظارها، كانت تثق به لأنه يعشقها، ويتمنّى أن تقبله صديقًا، لم يتردد فى الحضور حين اتصلت به، كانت تعلم أن "خالد" قريب من رواد الجمعية الروحية، لكنها تعرف أنه مختلف عنهم لرؤيته المنحازة للحب.

تعرف أنه يعيش وحيدًا بشقته بوسط البلد، يستقبل الفنانين والمخرجين وأصدقاءه، تعلم علاقاته النافذة بأجهزة مختلفة، قررت دعمه ليقوم بإنتاج أفلام يتنفس الناس من خلالها هواءً نظيفًا.

كانت أفلامه مثار اهتمام من الإعلام، أصبح نجمًا سينمائيًا لآرائه الثاقبة فى عالم الفن والسينما، حين استقبلته على مدخل السفارة قالت: "عايزة أنام"، قال: "يا فندم سريرك جاهز"، قالت: "عدى على كافيه الجوهرى لأنى جعانة"، اندهشت وهو يركن سيارته ويجرى كالكلب ملبيًا طلباتها، أخذت رشفة القهوة مع قضمة سندوتش الجبن بالزيتون، فعاد الدم الي وجهها .
فتح "خالد" باب شقته، وأعطاها المفتاح وقال: "عندى موعد فى قطر، سوف أتركك أسبوعًا تستمتعين بالوحدة والإلهام، داعبها فى أدبٍ قائلاً: "لا تدخلى حجرة مكتبى حتى لا تقطعى علاقاتك بى".

حمل حقيبته وأغلق الباب، ونزل درجات السلم مندهشًا من قوة امرأة تدخل فى مجال روحه دون أن تتأثر.

"الشياطين"

فى منزل "فرنسو" بالمعادى تجمع الرواد العشرة ينسجون معًا طريق النجاة، بعد تطور الأحداث ، وانسحاب "آن" وتفرغها لمرسمها بحى جاردن سيتى بوسط البلد.

"إيفلين" و"ربيع" أول القادمين، تناقشا كثيرًا فى لوحات "يوسف" والألوان القاتمة التى تظهر البراءة، حضر "يوسف" بعد المغرب ومعه الدكتورة "هدى" يتجادلان فى سر الليلة والعنوان المثير الذى سيختاره "فرنسو".

جاء "دياب" مع "دسوقى" ضابط المخابرات الذى أذهلته قوة "حمدى" وعلاقاته القوية بفلاحى قرى الفيوم، قال: "إنه أروع شخصية مترددة قابلها فى حياته"، "لم يتبقَّ سوى الدكتور عبد العال مدير مركز البحوث الأمريكى"، هكذا نطقت "إيفلين" غاضبة، لكن "فرنسو" قال بترحاب: "أنتم تعرفون الأعضاء الجدد الذين تم الاتفاق على ضمهم للرواد العشرة بعد اختفاء حمدى وانسحاب آن".

تباهى ليقدم "بيجاد" السياسى البارع والمخرج "خالد"، حينما دخل الدكتور "عبد العال" قال "فرنسو": الآن اكتمل النصاب، لن يبقى إلا الطعام حائلاً بين كشف المستور فى الليلة الموعودة، الصمت يُعشش فى أركان حجرات منزله الواسع، تناولوا العشاء وشربو اكثر من عشر زجاجات خمر معتق جئ خصصيا من مخازن ايطالية ، الفضول يملأ أرواحهم للقرار الاستثنائى لاقتياد "فرنسو" حفلة رواد الجمعية هذه الليلة واختياره عنوانها.

انتقلوا من حجرة الطعام إلى صالة كبيرة رُتِّبت باقتدار ليتوسط "فرنسو" و"هدى" جمع الرواد، كانت زجاجات الخمور هى الدلالة الوحيدة على الحياة فى هذا المكان، الجميع طُلب منه أن يرتدى ملابس سوداء كاملة، وأن يضع على وجهه ماسكًا أسود لأحد الحيوانات.

امتثل الجميع لتعليمات "فرنسو" ليعيشوا أروع مشاهد الليلة الاستثنائية التى اختار لها عنوان "الموت"، أغلق النور، ظلت عدة شمعات يتيمة هى المصدر الخافت للرؤية ، قرر فجأة أن يتمدد ويموت وسطهم، كان جسده ينبض، قال بصوت مقدس: "قررت العودة للماضى ولكن فى زى الشياطين، سوف نمارس حياة الأموات ونكتشف بأرواحهم ما يجرى حولنا، افقدوا حاضركم وتاريخكم، واحلموا، وعاشروا كل من طعنكم من الخلف ليضع قدميه على رقابكم، ابدأوا معى بالرحلة دون أن تخشوا شيئًا أو أحدًا ، أنا الآن أحزم أمتعتى وأذهب لمنزلى بولاية "وسكنسن" الأمريكية وأنا ميت؛ لأشاهد بنفسى ما آل إليه بيتى من خراب، لكن اسمحوا لى أن أرحب بضيوفنا الذين يحضرون لأول مرة ليحكوا معنا كميتين عن حياتهم، وسوف نبدأ بالسياسى القدير السيد "بيجاد" ليحكى لنا قصة الدكتورة "هدى" التى سمع عنها فى عالم الأحياء قبل التحاقه بنا.

يعرف "بيجاد" القواعد التى تربى وتدرب عليها، فحكى كشبحٍ دون أن يهاب الرواد لينال إعجابهم، أخذ رشفة كبيرة من كأسه وقال: "عاشت الدكتورة هدى حياة رغدة وسط عائلة ذات نفوذ تمتلك الأطيان الزراعية، وتعيش فى قصر كبير بجوار قصر الرئاسة بمصر الجديدة، تخرجت فى الجامعة الأمريكية، وأجادت اللغات المتنوعة، أنبأت ملامحها عن أنها فنانة أكثر من عالمة اجتماع، حصلت على الدكتوراه بتفوق، خسرت صديقها الذى توقعت أن يتقدم للزواج منها، كتبت بطلاقة ديوان شعر لم يُنشر بعنوان "مريم المجدلية" تتوق إلى نبيها المقدس، كانت

كلمات الديوان تدل على مشاعر صادقة للحب لكنها تحولت لامرأة قاسية بعد هجر الحبيب، أعطت كل وقتها للعمل حتى قابلها "فرنسو" فى إحدى الندوات، سمع بنتائج بحثها حول نساء الفلاحات المحرومات من الجنس والعلاقات العاطفية، اقترب منها وقال بشبق: "بحثك مذهل"، من وقتها وهو يواعدها كل ليلة ليفهم منها الأسرار الخفية لمقابلاتها مع الريفيات الراضيات بمصيرهن.

خلب قلب الدكتورة "هدى" روعة رائحة العطر الذى يستخدمه "فرنسو"، فهمت أن الأمريكى الأنيق يجب أن يحكم العالم، من هذا الوقت أصبحت الدكتورة "هدى" خاتمًا فى أصابعه ، كانت أحاديثه بمثابة جمل مقدسة تكررها فى المحاضرات واللقاءات دون أن تفهم معناها، لكن يكفى أن الذى نطق بها لسان الأمريكى الذى تفوح رائحة عطره بالعشق، ليتشبع جسدها بالأنوثة فى ليالى الغربة الطويلة بهذه البلاد التى لا تعرف إلا القسوة.

لكن الشيء الذى جعلها تثق بـ "فرنسو" أكثر، دعمها لشراء منزل بقرية تونس لتجاور الرواد فى المدينة الخلابة على شاطئ بركة قارون، كان يكفى أن يسهر طوال الليل فى قصره، ثم يأتيها فى وحدتها آخر الليل بعد أن تعاشره الصبية بالقرية ويستمتع بهم، ويصبح كالفحل، يرن جرس بابها وهو مخمور ليدخل قلبها البض، ويفجعها ليعيد ثقتها بقلبها، تقول لنفسها: "إن معاشرة الأجانب كنز لا تفوز به إلا المرأة المحظوظة!"

يجلس بجوارها على السرير، يسمع أنينها، يسألها بانتظام عن رأيها فى الفلاحات اللائى تقوم بدراسة روح قلوبهن، لكنها أبدًا لم تذكر إلا الخير والعطف عليهنَّ والغيرة منهنَّ بعض الأحيان، تؤكد بحنية وسط حديثها بأنهنَّ باهرات بارعات فى تحمل قسوة الحياة، وقبول مصيرهنَّ برضا غريب.

سعد "فرنسو" بدهشتها لتناول الفلاحات بعض الخبز والجبن والجرجير كأنهنَّ فزن بمتع الحياة، كانت تحاول أن تكشف سر امتنان الفلاحات للطبيعة رغم الحاجة، لكنها أبدًا لم تنسَ الوجع الذى سببه حبيبها المهاجر، الذى تركها وحيدة دون وداع أو حتى خطاب يبرر انسحابه وهجرته للتدريس فى الجامعات الأوروبية.

اعتقدت أن ارتباطها بـ "فرنسو" الشاذ هو طريقها للأخذ بالثأر من مجتمعها، كانت تعلم أن "مريم المجدلية" لن تتمكن من إعادة نبيها المقدس مرة ثانية إلى أحضانها".

ملأ مرة ثانية الكأس، ففهموا أن حكايته قد انتهت، فقال "فرنسو": "فى عالم الأموات نترك أجسادنا ونحلق فى السماء كالأشباح، نرى الدنيا كالشياطين أو الملائكة، لا تمنعنا حواجز أو جبال عن رؤية الحقيقة، تلك الكلمة التى جعلتنا نجتمع كخلفاء للأنبياء القديسين نحاول التعرف على مضمون "السر" الذى أخذه حمدى واختفى، لم نكن نتصور أن تهاجر صديقتنا "آن" إلى مرسمها مرة أخرى وتنزوى، لتبحث عن السر وحدها دون أن تثق بقدرتنا على كشف الحقيقة، لكننا اكتسبنا قادة جددًا يستحق عالم الأموات الليلة أن يحتفل بهم، واستكمالاً للاحتفال الاستثنائى فإننا نرحب بالمخرج الكبير صاحب الأعمال الإبداعية فى عالم الأحياء، ونطلب منه أن يحكى عن "فرنسو" الذى يعيش وسط عالم الأحياء".

كان "خالد" شابًا فى الأربعين يحظى بإعجاب عالم البشر، كوَّن شبكة علاقات رهيبة داخل الوسط الفنى والإعلام والأجهزة؛ ليصبح بحق نجمًا سينمائيًا تلاقى أحاديثه اهتمام الجميع كأهم فنان أنتجته تربة هذه البلاد، ودلل بجدارة فى فيلمه "الجبر" عن أحقيته فى الجائزة لدرجة

جعلت وزير الخارجية الأمريكية يتصل بـ "فرنسو" شخصيًا؛ ليقبل "خالد" بجمعية الرواد ليفهم منه سر إبداعه.

لكن "خالد" الليلة حزين لفراق "آن" شقته وعودتها لمرسمها، فقال: "فى عالم الأموات لا يوجد إلا همس الأجهزة التى تتلصص على نبض قلوبنا، ادعونى باسمهم أن أعطى للضابط "دسوقى" الذى أفنى عمره فى التلصص، لتأمين حياتنا أن يحكى بدلاً عنى أسرار "فرنسو".

لم يتردد الضابط وكأنه ينتظر دوره الذى جعله يدخل الجمعية، دون أن يكتب طلبًا بجهاز المخابرات، ليكتشف بنفسه أسرار هذا العالم الخفى، كان شغوفًا بطبيعته لاقتناء المعلومات وربطها مع الأحداث والمواقف والعلامات، أخذ كأسه دفعة واحدة، وقال: "فى عالم الأحياء كل شىء متاح إلا الحقيقة، هذا العالم المخادع يعلم أن فرنسو" عاش حياته بعد إنهاء دراسته فى بلاد المشرق العربى، يبحث لحكومته عن أسرار علم التاريخ الشفوى ، والتفاصيل التى دعت الناس إلى تقبل حياتهم رغم العجز، لم يتمكن من الإجابة عن الأسئلة الكثيرة فى جولته بالأردن وسوريا وفلسطين ولبنان، فاستوطن بمصر ليفهم كيف يتمكن الناس من الرضا بمصيرهم.

كان مسؤول السفارة الذى لم يعرف أحد اسمه الحقيقى يقابله كل سنة، ويختلى به أيامًا بمكتبه، يحاول أن يفهم منه ما الذى يجعل البشر فى هذا البلاد راضين ، تزوج من جارته التي كانت تزامله بالجامعة ، وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها، وبعد عامين أنجبا طفلة جميلة لكن "ماريكا" زوجته اكتشفت أنه يعاشر الرجال فقررت تركه؛ لأنه لم يقل لها قبل الزواج حقيقة رغباته ، قالت للقاضى قبل أن ينطق حكم الطلاق: "عاشرنى كامرأة ودغدغ مشاعرى، وفتنتنى قوته، لكنى أبدًا لم أتصور أن تلك القوة يأخذها من الصبية السود الذين كان يحضرهم باستمرار إلى منزلى".

غادر أمريكا بناءً على نصيحة صديق له بأجهزة المخابرات، تعرف عليه أثناء تردده على نادٍ للشواذ، ففهم الحقيقة بأن المستعمرات الجديدة تحتاج هؤلاء الرجال؛ ليمكنوا المارد الجديد من السيطرة على العالم.
لم يتردد "فرنسو" وغادر البلاد، وظل أكثر من عشرين عامًا طائرًا بين بلاد المشرق، لم يرفع مرة سماعة التليفون، ليسأل عن ابنته أو طليقته التى أخذت كل ما يملك وتركته للأجهزة عاريًا، يحققون رغبتهم فى شبقه بامتطاء الرجال".

عندما وضع الضابط كأس الخمر على المنضدة أعلن انتهاء شهادته، قال "فرنسو": "الليلة استثنائية بكل المقاييس"، وأضاء النور وقال: "سوف نستكمل الجزء الثانى من الليلة بطريقةٍ مختلفة".

"الحسينى"

طلب "فرنسو" من الرواد أن يخلعوا أقنعتهم وقال بصرامة وتحدٍّ: "أمامنا الليلة لغز يجب حله لا وقت لدينا، الجميع يعرف التهديد الذى يلاحق جبر الرضا"، الفرع الدولى للجمعية يعلم بالأحداث، ويطالبنا بكشف السر ومعرفة مضمون خطاب "عدولة"، لكن "حمدى" الوحيد الذى كان يمكن أن نصل من خلاله لكل الإجابات اختفى، لم تتمكن شبكة الفضاء المعلوماتى من اكتشاف مكانه؛ لأنه يعلم أن أجهزة المحمول والكمبيوتر هما همزة الاتصال بين عالمنا فحرق شريحته فى مكانٍ لم نعرفه بعد.

أنشأت الجمعية بمعرفة الجامعة غرفة يومية لإدارة بحث "جبر الرضا"، وأطلقت الباحثين فى قرى محافظة الفيوم تبحث عن المصير المجهول للرسالة، حاولنا أن نثنى "آن" عن قرار عزلتها بمرسمها، بعد أن امتنعت عن الذهاب لقرية تونس على غير عادتها، وطلبت إعفاءها من جلسات الرواد، وحتى الآن لم تصل من خلالها أجهزة السفارة لأية معلومات جديدة".

أكد أن الأجهزة أخذت علمًا بالموضوع ، وطلبنا منها سرعة الكشف عن الرسالة ومكان "حمدى"، لكن الجميع أكد أن الرواد العشرة هم المنوط بهم كشف الحقيقة"، قالت "إيفلين": "بالطبع نحن الذين قمنا بالكشف عن أسرار وكنوز الأجداد الأوائل بالقرية القديمة بالقرب من قصر "قارون"، وأذهلنا العالم حين وجدنا طريق السراديب الذى أخفى فيه "قارون" كنوز أجدادنا الأوائل، أشرفت الجمعية الدولية على البحث ومولت المشروع، تحكمت وحدها فى توزيع هذه الثروة إلا أنها أمرت كل واحد فينا أن يقتنى ما يشاء من آثار وذهب أجدادنا الأوائل الذين عمَّروا الأرض ونشروا الضمير.

مع ذلك حين طلبت منا أن نقيم قرية جديدة فى هذا المكان المقدس الذى نقلنا فيه كل كنوزه وبردياته، قالت كبيرة الرواد الدوليين: "يجب أن تزرعوا مكان هذه القرية الفواكه، وتجلبوا الفلاحين من بلاد مختلفة لتعرفوا كيف يرضون بالمصير".

استكمل "دياب": "استخدمت علاقاتى ونفوذى لتسهيل إجراءات إنشاء القرية، وإحضار نماذج للفلاحين والفلاحات المطلوبين، ووضعهم بهذا المكان النائى بناءً على رغبة "فرنسو"، وجعلنا نموذج الدولة الحرة يجرى بينهم من خلال الشيخ والمخبر، والقواد والأمين والجمعية؛ لنرى بعد عشر سنين ماذا يمكن أن تنتج هذه الخلطة البشرية.

بالرغم من ذلك لم أجد سببًا لتسكين "عدولة" معهم، لكن "فرنسو" العالم بكل الخبايا هو من زرعها هناك لتجعلنا اليوم أسرى رسالتها المخفية"، قال "الحسينى" الصامت دائمًا: "لن نُحمل فرنسو وحده مسؤولية تسكين عدولة اللقيطة بنت المدينة وسط هذا الجمع القروى؛ لأنها كانت العلامة الوحيدة على الحياة فى هذا المكان النائى".

قام "فرنسو" وأطفأ النور فجأة، وقال للدكتورة "هدى": "فى عالم الأموات لا يهم أن نتذكر ما يقوله الأحياء على بعضهم البعض، لكنكِ تعاملت مع "الحسينى" فاحكى لنا كيف يراه الأحياء فى عالم الموتى".

أخذت الدكتورة "هدى" رشفة كبيرة من كأسها، وصمتت دقائق والجميع ينتظر صوتها الميت ليشكل ذاكرتهم، فقالت دون أن تذكر اسمه: "رغم جنسيته الفلسطينية فإنه يحمل كرهًا عجيبًا للبشر ، ويعتقد أن العنف والعمليات الاستشهادية هى التى أضاعت أراضى بلاده ويمكن أن تضيع باقى حقوقهم، يدير صندوق التمويل الذى خصصته السفارة لتمويل البحوث الاجتماعية التى يشرف عليها "فرنسو"، مجرد من المشاعر، لم تخرج ملاحظاته إلا لضبط الحياة كما علموه الأسياد فى تدريباتهم المختلفة، الدنيا بالنسبة له بناء واضح مكتمل، نموذج فريد أبدعه الغرب بشكل مجرد يجب أن نقيس على هذا النموذج كل شىء، لا وجود للمشاعر فى حياتنا لأنها خارج النموذج.

بعد أن أنهى تعليمه فى جامعة "حيفا" تمكن من السفر لأمريكا، وهناك اكتشف فى العالم الجديد سر الإمبراطورية، النموذج الأمريكى لا يُخطئ أبدًا، علَّقه وسامًا على صدره، راقبته الأجهزة وحيكت حوله الحدود والخطوط حتى حبسته بسجنها النموذجى، فاختارته الجامعة ليصبح أحد علمائها المنفردين فى المناهج المبنية على الحقوق.

ترك الجامعة وعمل بمبنى الأمم المتحدة كمستشار للجنة الحقوق المدنية، ثم انتقل ببراعة ليصبح مديرًا لصندوق التمويل الأمريكى لمنطقة الشرق الأوسط.

يستقبل المشروعات والبعثات التعليمية ليعطيهم خبراته، يأكد مرارًا أن بلوغ النجاح بالالتزام، كان يقول بصلافة: "إذا أردت أن تأخذ فلابد أن تعطينى الطريقة والمنهج، إذا التزمتم فسأجعل عملكم سهلاً، إبداعكم خارج حدود الالتزام بالنموذج لن يفيدكم أو يفيدنا، إن الأجهزة التى أبدعها الغرب يجب أن نضع عليها أجسادًا موحدة؛ لتعطى النتائج بطرق علمية أكثر حيادية وشفافية".

حصل على جنسيته الأمريكية بعد زواجه من إحدى الأمريكيات العرب، عاش معها سنتين، هجرته لتعيش حياتها كمديرة لأحد المطاعم دون أن تسمع كل يوم عن النموذج الأمريكى الذى يدير العالم، كانت ترغب فى أن تكون جزءًا من العالم، وليس من الأدوات التى يصنعها الساسة والقوادون.

عاش بالقاهرة مستمتعًا بهدوء شقته بحى المعادى دون أن يدرى أن السفارة قد استأجرته له بجوار قصر "فرنسو"؛ لتتمكن من وضعه يوميًا تحت عينيها لتراقب أموالها.

استمتع "فرنسو" بآرائه حول تصرفات شعبه وهمجيتهم؛ والخونة الذين يطلقون على أنفسهم أسماء المقاومين وكتائب الاستشهاد؛ لأنهم السبب الذى جعل إسرائيل تحتل كل هذه الأراضى وتستولى على مصيرهم، كان "فرنسو" فى بعض الأحيان يحاول أن يثنيه عن آرائه القاسية فى شعبه، لكن قلبه المجرد من المشاعر كان لا يفهم إلا بطريقة النموذج الأمريكى.

قالت زوجته التى تركته، وعادت لأمريكا: "شاهدته فى أجازتى الأخيرة حين قرر زيارة أمه فى "حى المشمسانى" بعمان، كان يعامل أهله بقسوة، حين زاره أبناء عائلة "الحسينى" الشهيرة بمخيم الوحدات الذى يقع فوق جبال مدينة عمان قال لهم: "اعتبرونى ميتًا، لا تطلبوا منى شيئًا، أنا مُراقَب من قبل الأجهزة"، نظر إليه شاب بقرف وقال له: "ليتك مت، أنت خائن لقضيتنا"، كاد الشاب يقتله لولا والدته التى صرخت وطلبت منه أن يتركه لحال سبيله، وقالت للشاب بحب: "قلبك عمران بالحب يا مروان، لا توسخ يديك وروحك بدمه، إنه ميت رغم جسده النابض"، بصق الشاب فى وجهه، وتركه إكرامًا للسيدة التى تُدعى أمه".

أعادت الدكتورة "هدى" للموت قدسيته، فقال "فرنسو": لن نقف مكتوفى الأيدى، الجميع شارك فى اكتشاف البرديات والكنوز، ونقلها للخارج واقتناء أجملها ".

قال "يوسف": "كانت عدولة تعرف كل شىء عن تحركاتنا، وكانت تفهم كامرأة مدى حب الرجال للاقتناء".

كان النهار قد قارب على الطلوع، قال "فرنسو": "سوف نعاود اجتماعنا الاستثنائى خلال الليالى القادمة؛ لأن ضوء النهار يوقف الأشباح من المطاردة ولن نتمكن من الموت، وهذا الضوء المزعج يزداد دقيقة بعد دقيقة".

صمت الجميع، وبدأوا فى الخروج من الشقة كما حضروا باستثناء "إيفلين" التى قررت النوم بمنزل "فرنسو"، تركها الجميع، وذهبوا إلى أعمالهم ليعيدوا اكتشاف أرواح الأحياء علَّها تدلهم إلى مكان "حمدى" أو رسالة "عدولة"، ورغم ذلك قال لهم "فرنسو" قبل الرحيل: "إن عملنا فى التنقيب والبحث عن الكنوز لتخليد أعمال الأجداد الأوائل لن يستمر والسر مازال مختفيًا، إن جمعيتنا مهددة ومجلس الرواد الدولى يُحذِّرنا لسرعة الكشف عن الرسالة".

"ضريح المحرومة "

قرر الخدام بقرية الخضر قبول التحدى، وأعلنوا المواجهة لمعرفة السر، كان "ضاحى" على يقين بأن "حمدى" هو المفتاح الذى يمكن أن يصلوا به للحقيقة، تيقن من ذلك بعد مشاورات مع "سيد الصعيدى" وزوجته "عزيزة" وجارته "حمدة" العجوز التى جاءت للقرية بعد أن مات كل أهلها واشترت خمسة فدادين ومنزلاً؛ لتعيش الباقى من العمر وسط الصحراء بهذه الواحة، كانت تسخر من الجميع وتدَّعى معرفة كل شىء؛ لأن قلبها ملىء بالطهارة.

قبل الليلة الأولى التى عقدت بمنزل "حمدى" المختفى، اجتمع "ضاحى" و"محمودة"، و"سيد الصعيدى" و"عزيزة"، و"حمدة" و"على أبو شنب"، وزوجته "شمس" و"هنية"، و"فاتن" ليعلنوا المقاومة.

قالت "فاتن": "نحن تسعة أشخاص، لا يمكن أن نعرف الحقيقة إلا إذا أصبحنا عشرة"، ردت "شمس": "حمدى عاشرنا"، نظر "ضاحى" ناحيتها قائلاً: "يجب ألا يعرف عنا كل شىء"، استجابت "فاتن" لقراره مؤكدة بأن "عدولة" كانت تتمنى أن تجمع عشرة أشخاص من القرية يؤمنون بالخلاص بشرط إقامتهم بالخضر قالت لى فى هذا اليوم: "لا يجوز لحمدى أن يكون معنا، إنه أرق قلب لمسته روحى، لكنه فى النهاية ابن المدينة الذى يحس معنى الحرمان".

قالت المرأة العجوز: "حمدى مرشدنا، ويجب أن نختار امرأة لنستكمل العشرة، ردت "فاتن": "إن خديجة زوجة أمين جابى الضرائب تتحدث معى بإخلاص، وترفض العيش بهذه الطريقة المهينة"، استكمل "سيد الصعيدى": "إنها تعاشر المخبر فى بيت زوجها، فكيف نأتمنها على سرنا؟!" أجابت "فاتن": "قطعت علاقاتها بعصابة الأربعة، وأخذت أطفالها وتعيش وحيدة بأحد بيوت أمين".

بكت "هنية" قائلة: "إنها رقيقة وتأخذنى بحضنها بحنية وحب لم أحسهما إلا بقلب أمى"، قالت "محمودة": "مكسورة الجناح وتعيش كأسيرة لأمين، لكن قرارها الأخير بترك بيت جابى الضرائب يجعلها تستحق دفء أرواحنا".
وافقت "حمدة" على ضم "خديجة" لعشائهم القادم لليلة عاشوراء بمنزل "حمدى" المختفى عن عيون السلطة.

كانت "فاتن" التى تجهز لـ "حمدى" فرشته وطعامه وتبلغه بالتطورات داخل قرية الخضر تؤكد أن البحث مازال جاريًا عنه من قبل عصابة الأربعة التى فتشت كل حبة رمال ونخلة فى هذا المكان الموحش، حكت أسرارهم بناءً على طلب "حمدة" رمز الأمومة فى هذه البقعة النائية.

نقلت للخدام العشرة انطباعات "حمدى" وآراءه فيما يجرى، قالا "ضاحى" و"حمدة" فى وقت واحد: "حمدى مرشدنا".

أعلنت المعركة الأولى التى قرر فيها الخدام بالاتفاق مع "حمدى" بناء ضريح بمنزل "عدولة"، ونقل جثتها إليه؛ ليزورها الأهل والفتيات يتلمَّسون الهِداية والأمان من عطرها الفتان الذى يملأ المكان.

على الرغم من المعارك التى دارت بين عصابة الأربعة والخدام العشرة فإن "حمدى" تمكن من تسهيل الإجراءات بالقاهرة بعلاقاته القديمة، أبدعت "فاتن" باعتبارها رسولاً نبيلاً للفكرة، تمكنوا خلال شهر واحد من إقامة الضريح وعمل ليلة لأهل الله وزعوا فيها النابت والبرتقال، والكعك على المريدين من أبناء الخضر.

توطدت قوتهم وأحسوا بقدرتهم فساعدهم ذلك على مواصلة التحدى لوقف عصابة الأربعة عن ملاحقتهم أو تهديدهم، وقرروا بالإجماع رفض دفع الإتاوات حتى ولو سموها أقساطًا للأرض، أو فواتير للكهرباء، أو صيانة محطة المياه.

فى ليلة عاشوراء المفترجة التى أخذوا فيها هذا القرار كان القمر يتوسط السماء، فبعد أن زاروا ضريح "عدولة" ورجعوا لمنازلهم، وأمّنوا أولادهم ومواشيهم خرجوا من الطرق الخلفية لمنزل "حمدى" المختفى وسط الصحراء حتى لا يعثر على رائحتهم العسس، كان "سالم" السائق صديق "شرف" المحبوس هو من يؤمن لهم الليالى الطويلة حتى لا يحس بوجودهم أحد.
بعد اتخاذ قرار المواجهة طلبوا من "حمدى" أن يحكى لهم عن "عدولة" وعن نفسه دون مواربة؛ لأنه أصبح مرشدهم ويجب أن يعرفوا كل شىء عنه.

يعلم بخبرته السابقة بجمعية الرواد الروحية المخزون البشرى لارتباط الأرواح الطيبة، كان يثق بأن لغة الأرواح لا تحتاج إلى مترجمين للحسّ باحتياجات البشر فى التلاحم والاندماج للخلاص والرضا .

رغم اختلاف ليالى السبت عن ليالى الخميس التى يعقد فيها الخدام اجتماعهم، فإن للعشق درجات ومراحل لا يصل إليها إلا الزاهدين.

يفهم بعلاقاته التى توطدت بهم من خلال وجوده المخفى طيبة قلوبهم وطهارة أرواحهم، أخذ كل طاقات الحب من روح "عدولة"، ومسح بها وجهه وهم يلتفون حول النار التى أشعلوها فى المنقد لتقيهم البرد، قال قاطعًا الصمت: "أنتم معى فى حضرة عدولة، إن روحها الليلة تلف علينا جميعًا وتملأ الحجرة، إننى أشاهد بياض وجهها بأرواحكم، أغمضوا عيونكم ليملأكم نورها"، استمر الصمت عدة دقائق، استطرد "حمدى": "عندما نثق بأشخاص أو نؤمن بهم لا يمكن أن نصدق أبدًا أنهم بشر، هم منزهون عن كل خطأ حتى إذا ارتكبوا جرمًا، فهم يفعلونه لأنهم محاطون بالشر، ويرغبون فى حمايتنا، هم يريدون أن نشك فيهم ، لكننا أبدًا لا يمكن أن نفعل ذلك؛ لأننا مؤمنون بهم ونقدر ما يفعلون، فهم ملائكة لا يمكن أن يرتكبوا أى أذى".

عند هذه اللحظة من الإيمان يتم التقاط خيوط الرضا فنسير كالعميان وراء النور الذى يكشف لنا كل شىء، موقنين بأن مرشدينا الملائكة لم يفعلوا ذلك إلا بدافع حمايتنا، يقاوم النور الظلام فالنور هو الحقيقة، وقتها يبدأ المبتهلون بالتوجه نحو الميدان الذى يوزع شعاع النور بقلوبهم ليعترفوا بأخطائهم البشرية ويندموا على فعلتهم، عندها يغفر لهم الملاك ويأمر بتحليقهم حول حدائق الحب.

واستكمل: " لا أدرى لماذا أتذكر الآن سؤال عدولة فى آخر مقابلة جمعتنا: "هل التعامل مع أجهزة أجنبية خيانة؟" يومها أجبتها ببساطة قائلاً: "نعم، كنت متيقنًا من أنها تسأل عن يوسف وربيع، وفرنسو وإيفلين ملاك قصور قرية تونس"، فقلت لها: "ما معنى أجهزة أجنبية؟" قالت مكررة السؤال: "هل التعامل مع حكومات أجنبية حتى ولو كانت حكومات عادلة ضد حكومتنا

الظالمة يعتبر خيانة؟" أجبت ببساطة: "نعم"، حين جاءنى تليفون من "فرنسو" فى هذا الوقت أيقنت أنها خارج نطاق الخدمة؛ لأنها جلست صامتة عشر دقائق تنظر بعيونى دون همس.

أسئلة كثيرة رددتها بتلقائية وأجبت عنها ببساطة لأنك يجب أن تعترف بكل خطاياك، كى يحن قلب الملاك ويأمر لك بالتحليق فوق حدائق الرضا، لكن الملاك لا يمكن أن يصنع أجنحتك إلا إذا اعترفنا بكل حماقاتنا، وقتها يمكن أن يأمر السماء لتفتح طاقة الحب فينزل النور على قلوب العطاشى، ليغسل شرورهم ويمحو تشوهات وجوههم، يصنع الملاك قناعًا قرب القلب فتتحسسه أيادينا وتطمئن أرواحنا، ويلصق ببراعة الوجه الإنسى الجميل ليمحو خطايا البشر، فنصبح ضمن الملائكة والخدام الصالحين.

تسألوننى اليوم عن "عدولة"، أعترف بأنها أزالت بمشرطها القوى اللامع كل أعضائى التى تشوهت، استطاعت ببراعة أن تمحو كل أثر للشر، والجروح المندملة فى روحى، لكن السؤال الجوهرى الذى سألته ببساطة ولم أُجب عنه: "كيف يحس الملاك بالإيمان؟ هل يشعر به كما نشعر؟ أم أن هناك معايير خفية لا يعرفها إلا هو؟ إن الإيمان يجعل المجهول بالنسبة للملاك طريقًا واضحًا".

حين لم أجد إجابة عن أسئلتها انتابتنى حمى الفضول والشك حول خططها للإيقاع بى، ما المجهول الذى تعلمه هذه المرأة يمكن أن يجعلنى مفضوحًا أمام الجميع؟ فى هذا الوقت تيقنت بأنها الحقيقة ؛ لأنها أبدعت الطرق وأحبكت الخيوط لتطهير روحى، كما أنها الوحيدة التى سألت وأنا فى منتهى النشوة عن ماهية الخيانة، قالت ببساطة: "أيمكن استدعاء أغراب عادلين ليحمونى من شرك؟" فأجبت الإجابة المنطقية لأسير فى طريق النور حتى النهاية، أيقنت أننى المقصود، راجعت أسئلتها الكثيرة طوال هذه الليلة فتعجبت من قدرة امرأة تملك مفتاح الحياة، وتحيا وسط العصابة بالقرية الموحشة دون خوف.

مرت سحابة سوداء مرعبة تحت القمر الساطع فاختفى نوره، أحسوا بالظلام داخل الحجرة، نزل المطر الرهيب وانطلق الرعد خارج حدود المنزل، امتلأت شوارع الخضر وبيوتها الطيبة بمئات الأطنان من مياه السماء لتطهِّر النفوس من الجبر والذل.
ظلوا صامتين عشر دقائق حتى خفت المياه، وأصبحوا فى مأمنٍ من الأشرار، فانطلقت فوق رؤوسهم روح "عدولة" ببريقها اللامع.

كان هناك بعض المعلومات التى وصلت إلى المخبر وعصابته تفيد ببعض التحركات للخدام العشرة للمواجهة، لكن مياه المطر الغزيرة جعلتهم يؤجلون قرارهم بالبحث الليلة عن الخيوط التى تربط الخدام، قال المخبر: "عندى إحساس كبير بأن حمدى يختبئ بالخضر"، رد "أمين": "حمدى تربى بالمدينة ولا يمكنه تحمل قحط القرى"، همس "عثمان": "فصلوه من مشروع الجامعة الأمريكية، وبالتالى لا صلة له بقريتنا"، قال الشيخ "موسى": "إحساسى يقودنى إلى أنه ينام بهذه البيوت التى يمتلئ بها البشر الميتون".

لكن المطر الغزير حمى الخدام من الملاحقة، فقررت العصابة تأجيل البحث ، وأنكروا إحساسهمليناموا الليلة مدعين الدفء.

قرر الخدام تحدى العصابة لمعرفة سر إحضارهم لهذه القرية النائية، قالت "فاتن": "عدولة كانت صديقتى وكانت تعتبرك مخلصها بدليل أنها تركت رسالتها الأخيرة عندك".

قال "حمدى": "الخدام يعرفون أنكِ حملتِ رسالتها بين قلبك، وأوصلتها لمنزل "آن" لكنكم لم تفكروا كيف يمكن إعادتها لنعرف ما فيها"، ردت "فاتن": "الجميع قرر مقاطعة آن هذه الفترة على الأقل لحماية حياتك، فمجرد مقابلة أحدنا لها سينكشف السر"، قالت "حمدة": "لكل وقت أذان، مضمون الرسالة سوف ينكشف حين تكتمل خيوط القمر فى السماء".

كسرت "خديجة" التردد فى البحث عن السر قائلة: "ربما كان القناع الذى حاولت عدولة أن تضعه على وجهك هو وجه الراضى المحروم الذى كانت تتمنى أن تراك به، لماذا اختارتك دون العالمين لتخصك بسرها؟"

عادوا ببراعة إلى طقوس الخدام العشرة، فهمس "ضاحى": "استكمل ما تعرفه عن نفسك وعن عدولة، فهى الملاك المرشد لطريق الخلاص".

كانت النار قد استوت فوضع "على أبو شنب" حبات فحم جديدة، لتملأ السماء بالدفء رغم المطر والبرد.
قامت "شمس" زوجته بتسخين العيش على النار، وأحضرت "عزيزة" زوجة "سيد الصعيدى" الجبن الناشف المخلوط بالطماطم أمامهم، فأكلوا العشرة من الرغيف نفسه وأعطوا لـ "حمدى" قطعة ليصبح عشاؤهم المشترك دليلاً جديدًا على قرارهم بالتحدى ومواجهة عصابة الأربعة.

قال "حمدى" بعد أن مسح وجهه :" ربما كان هذا الوجه الذى حاولت أن تضعه على قناعى هو وجهى، نزعت التشوه الذى أصاب عيونى وأنفى وفمى وخدودى لتزيح آثار الجبر، عطفتْ علىَّ بعد أن رأت هذا الوجه أول مرة وأنا أجلس بالمقعد الخلفى بالسيارة.

حين رأتنى بالخضر فى المرة الأولى، تراجعت بعيدًا عن السيارة لدهشتها، ربما حاولت بعد ذلك أن تلبسنى قناعًا ذا ملامح واضحة؛ ليغطى التشوه الذى كان قد أصابنى.

حاولت أن تعيد إنسانيتى، أخفت بشاعتى وشرى، لكنها تمكنت فى النهاية من وضع قناعى الجديد على بقايا وجهى، كشطت بقوة كل التشوهات حتى أصبح وجهى قطعة حمراء ملساء، يمكنها أن تحتضن حبها الجديد النظيف الطاهر، كانت تأمل ألا يتشوه مرة أخرى، ربما يخفى وجهى بشاعة البشر على مدار التاريخ الإنسانى الطويل، ربما، لكنها تمكنت فى النهاية من وضع روعتها الإنسانية بروحى، وأصبحت ممثلاً لطيبتها ورقتها على الأرض.

كانت محاولة جيدة وناجحة لـ "عدولة" حين استعادت وجهى الذى أحبكم، الوجه الذى تحسسته بعيون "ضاحى" يوم جاءنى فى المقابر خلف البركة لينقذنى، هل تتذكرون شكله؟ لا يهم وجه من فى هذا اليوم الذى اخترق ضلوعى وأزال كل الشرور، ربما يكون وجه "هنية" أو "خديجة"، أو "فاتن" أو "على"، أو "عزيزة" أو "شمس"، أو "حمدة" أو "محمودة" أو "ضاحى" أو "عدولة"، ربما يكون وجه إنسان جميل قابلته، فتمنيت أن أحمل صفاته.

ربما يكون القناع الذى وضعته هو الأمل الباقى لنا فى هذا الصراع، ربما، لكن الشىء الأكيد أنها تمكنتْ من كشط كل التشوه، وألبستنى قناع الرضا.

هذا كل ما أتذكره عن مقابلتها فى الليلة الأخيرة التى اعتقدت فى بدايتها أنها تنوى إيذائى، أحسست بأنها ترغب فى قتلى، كان يمكنها أن تضع السم فى كوب الشاى، لكن قلبها

الرقيق لم يطاوعها على تصورى وأنا أقف وسط الجموع خانعًا مرعوبًا من الحقيقة التى كانت سعيدة بنسج خيوطها وغزلها لتكشط ببراعة القبح، استطاعت أن تمحو بشاعتى وتملأ مشاعرى بالامتنان الذى فقدته بسبب عجز البشر.

كيف استطاعت أن تنسى إيذائى منذ اللقاء الأول ونظراتى الطاعنة لتتراجع فى اللحظة الأخيرة عن إلقاء بئر القاذورات بوجهى، كانت سعيدة وهى تحيك الخيوط وراء الخيوط لتفضح سرى وتجعلنى أضحوكة الجميع، لكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة، ردعها الخير بداخلها، أوقفها النور على دخول ممر الظلام بعد أن حبكت المؤامرة كى تدخل النفق، وتلقى بدلوها المملوءة بالقذارة فى وجهى، أيقظها النور كى لا تمر.

لم أكن أصدق أن أحدًا غيرى يحمل السر "الحب طريق الخلاص"، لم أكن أصدق أن أحدًا غيرى يجعل الكلمات الثلاث مرشدة، لكنها الفاتنة تراجعت وأمسكت بالسر مرة أخرى، تحاول أن تصارعه لتأخذنى خلفها لطريق الرضا.

أبدعت صاحبة الضريح التى تستحقه أن تردم حفر الأذى لتقول بصوت مسموع فى الليلة الأخيرة: "أنت تستحق النجاة".

أزال نورها كل الماضى بداخلى، وتزينت بتراث من الحب خلب روحى، تلحفت برحيقها الفتان لأقرر السير نحو الخلاص، الطريق الذى رسمته لى قبل مقتلها بساعات، لكننى أحتاج أن تساعدونى مرة أخرى، لنحصل على رسالتها علَّها تكشف جزءًا من الحكمة التى جعلتنا ننعم بالرضا.

كاد الظلام يختفى رغم السحابات الرهيبة التى ملأت السماء، قالت "حمدة": "لنا لقاء آخر، نقوم الآن لنصلى الفجر بمنازلنا، فالأمطار الغزيرة تمنع وصولنا إلى المسجد، سنذهب إلى الحقول دون أن يدرى أحد بالقرية بقرار مواجهة العصابة".

تساءل "سيد الصعيدى": "متى سننفذ التحدى؟" ردت "حمدة": "كل وقت وله أذان"، أطلق الديك صيحته ليبلغ البشر بنزول الرزق، انصرفوا من الطريق الخلفى ليلحقوا بنصيبهم من الندى والبكارة.

ظلت "فاتن" آخر النساء المغادرات، قالت لـ "حمدى": "ماذا كان بينك وبينها؟" رد: "الحب"، تساءلت: "كيف أستعيد روح شرف من السجن؟" رد: "بالإيمان"، همست: "كيف أنام بحضنه الليلة بسجنه البعيد؟" رد: "الخير يجعلك تطيرين إلى هناك دون عائق، ويمكنك أن تتجهزى لملاقاته"، تحدثت مع نفسها قائلة: "سوف أحضره الليلة ليؤنس وحدتى بمنزلى"، نطق "حمدى" بثقة كلماته الأخيرة: "ملِّسى على وجهك، وأرسلى كل أرواح الخدام العشرة لتخترق قلبه"، قامت مسرعة لملاقاة حبيبها المحبوس، والمتهم غدرًا بمقتل أعز صديقة .

"زوبة"

وقفت سيارة لورى كبيرة محملة بالسماد أمام باب الجمعية الزراعية بميدان الخضر، كان فى استقبالها الشيخ "موسى" و"عثمان"، و"أمين" والمخبر "رشاد" الذى عمل بنقطة الشرطة لمعاونة الضابط الذى لا يأتى كثيرًا للقرية بعد أن حرر أول محضر بالنقطة لجناية مقتل "عدولة"، واتهام "شرف" كذبًا بارتكاب الجريمة.

كان يترك النقطة بالأسابيع لأمين شرطة متصابٍ من بلدة الأبعادية المجاورة ليديرها مع المخبر بتواطؤ الجميع، قال "عثمان" مدير الجمعية: "سيتم توزيعها بالعدل ككل مرة ربع الحصة للفلاحين، ويتم توزيع ثمن باقى اللورى مناصفة علينا نحن الأربعة"، قال "طه" أمين الشرطة الجديد: "المبلغ سيتم اقتسامه على خمسة"، قال الشيخ "موسى": "اقتسما أنت والمخبر حقكما"، قال المخبر: "حصتى لن يمسها بشر"، ثارت معركة بينهم واللورى يقف بالسماد يرغب سائقه فى إشارة منهم لتنزيل ربع الحصة كالعادة، والعودة مرة أخرى بباقى الحصة لمخازن "دياب" بقرية الأبعادية.

لكن الوقت تأخر، وتعالت أصواتهما على توزيع نصيبهما، حلف "أمين" جابى الضرائب بأن حصته معروفة، وسوف يبلغ "دياب" باشا بتطورات الموقف، أكد "عثمان" كلامه وقال: "يجب أن نتصل بالباشا للفصل بيننا"، كان "دياب" فى هذا الوقت يدخل مخدعه ليستمتع بالوحدة فقال لـ "أمين": "أرسلوا الحصة وسوف أعطيكم نصف ما كنتم تتقاضونه؛ لأن جهة سيادية علمت بجرائمكم ويحتاجون ثمن سكوتهم"، أغلق "أمين" التليفون وقال لهم الخبر كأمر، لكن "طه" أمين الشرطة المتصابى قال: "لن يمر اللورى خارج الخضر إلا إذا تسلمت حصتى"، هدد المخبر أصدقاءه القدامى بضرورة الاتفاق قبل أن يشتعل الموقف، لكن الحريق قد اشتعل بإطلاق رصاصتين من طبنجة أمين الشرطة؛ لتخويف "أمين" والشيخ "موسى" و"عثمان".

تجمع الفلاحون بميدان الخضر حول لورى السماد، متلهفين لمعرفة من الذى يطلق الرصاص ومصير اللورى المحمل بالخيرات.

حاول الشيخ "موسى" تفريق الفلاحين، فقال لهم: "ربع اللورى لكم، والباقى ملك الفلاحين من القرى الأخرى.

كان الخدام العشرة قد وصلوا إلى ميدان الخضر، قال "ضاحى": "أرنى فواتير اللورى"، استكمل "سيد الصعيدى": "لن نترك اللورى يخرج من القرية هاربًا بحصصنا ككل مرة"، صرخت "هنية": "يا كفرة الدولة تسلمكم الشيكارة بسبعين جنيهًا، وتبيعونها لنا بمائة وسبعين جنيهًا، سوف نحصل على حصصنا كاملة".

قال الشيخ "موسى": أين زوجك يا هنية ليتكلم؟" أجابت بثقة: "زوجى يعمل ببلاد الله ليطعمنا بعرقه"، رد بسخرية: "انتظرى حتى يأتى لأن البطاقة باسمه"، ردت بفخر: "أنا بدلاً عنه"، استكمل "أمين" ليهينها: "لابد من تفويض"، أطلقت "حمدة" حكمها قائلة: "يا كفرة لن نرحل قبل أخذ السماد".

انطلقت كلمتها معلنة تجمع أسر الخضر بالميدان، أحاطوا اللورى وسط رفض العصابة تنزيل السماد، اتصلوا بـ "دياب" ليبلغوه الخبر، قال لهم: "اعتقلوا عددًا منهم، وهددوا الباقى

وسوف يرحلون كالغنم"، حين أطلق أمين الشرطة الجديد "طه" طلقة أخرى فوق رؤوسهم كان ذلك إعلانًا بالمعركة.

قالت "حمدة": "لا تقتلوا أحدًا منهم، كتفوهم حتى يتم توزيع السماد". كان المنظر مهيبًا والفلاحون يخلعون الخوف، ويلقونه بقلوب عصابة الخمسة، حاول السائق المرور من وسط الجمع ليهرب باللورى لكن "سالم" صديق "شرف " بن "سيد الصعيدى" كان قد ركب على الدريكسيون وأوقفه، تم تكتيفه معهم، لفوا حول رقابهم وأقدامهم الحبال وحبسوهم بإحدى غرف الجمعية، ووقف الخدام العشرة ليوزعوا بالعدل بين أسر الفلاحين السماد، تبقى ثلاث شكاير، فقالت "حمدة": "إنها لأشجار الجامع وضريح "عدولة" والشوارع التى ماتت من الإهمال".

حضرت "زوبة" زوجة المخبر مفتونة بقوة أهالى القرية، وقالت لـ "حمدة": "اقبلى توبتى أنا منكم"، ردت "حمدة": "يجب أن تتطهرى"، صرخت "زوبة" أمام الجمع الكبير: "أنا زوجة المخبر ، أنتم جميعًا تعرفوننى، أغوانى بأمواله وأصدقائه، أتوجه اليوم إليكم لتقبلونى بنتًا فى أراضيكم"، همست "هنية": "من منا لم يخطئ؟" ردت "خديجة": "أخذت كل الأمان فى الماضى، فكيف نقبلها فى الحاضر؟" أجاب "ضاحى": "كانت مقيدة بظلم المخبر".

شقت جلابيتها من على صدرها، كانت حزينة، تكلمت بطلاقة وصدق، أحسوا بها، نزفت دموعها، لم تكن تضع على وجهها أية مساحيق، كانت تتألم وتخرج طاقتها لمواجهة المخبر ولنصرة أهالى الخضر، حاولت أن تتخلص من "رشاد"، وتقطع كل ما يربطها به، كانت قوية وهى تحاول، الجميع كان يشد على يديها لتتمكن من الحرية.

حكت ببكاء قائلة: "فى الليلة السابقة لا أتذكر الحلم لكنكم كنتم معى، حاولت حمدة أن تهز قلبى ليتطهر، كانت تحاول كشط كل وساختى، فتحت عينى المملوءة بالغضب، ورفضت طبطبة المخبر، حاولت أن أهدئ نفسى، لم أتمكن، أمسكت سكينتى وهددته بالقتل إن لم يسمح بمغادرتى منزله بأولادى للأبد، لبست ملابسى وخرجت مع أطفالى، لم يقاومنى الكلب، كنت غاضبة، جاءنى أبى وأمى بكامل الهيئة وأنا أطلب منهما دعمى لأخذ حقى، كانا كالملائكة. وجوه كاملة، ألوان مكتملة، أخضر، أزرق، أسود، أبيض، قلت لهما: "سوف أشتكيكما لحمدة"، وعند منزلها تركتهما وسرت وحيدة، كانت تجلس أمام الباب امرأة عجوز بوجه "عدولة" التى نعرفها، نادت علىَّ: "بت يا زوبة، زعلانة ليه يا بت؟" كنت أبكى وأقول لها: "عايزة أرضى، عايزة حقى يا حمدة "، كانت تشتم أبى وتصفه بالواطى، قالت لأمى: "اخص عليكِ يا زينب مزعله زوبة ليه يا بت؟"

فى الصباح تجمع عشرات النساء والرجال يحاولون منعى من مغادرة المنزل، لم يتمكن أحد على ظهر الدنيا أن يوقف خروجى، عند الضحى جئت إليكم أطلب السماح فهل تقبلوننى بينكم أم أغادر إلى "أبشواى"؛ لأعيش ببيت أبى مع أولادى؟" ردت "فاتن" بعد أن نظرت لـ "حمدة": "أنت منا يا زوبة"، ناولتها البلطة وصرخت فيها: "لا تجعلى أحدًا من عصابة الخمسة يخرج من الجمعية إلا بعد توزيع السماد".

لا يدرى أحد كيف عرف مركز الشرطة بأحداث الصباح، فوجئت القرية بخمسين عربة شرطة كبيرة تحمل مئات العساكر المدجَّجين بالسلاح، وعشرات المجنزرات التى أحاطت القرية من كل اتجاه، خوفًا من تهريب الأسمدة إلى الحقول.

كان "دياب" ينتظر عودة اللورى كاملاً عقابًا للأهالى، وقال لرئيس الشرطة بعد أن تشاور مع مجلس رواد جمعية الأرواح: "حملة التأديب والترويع يجب أن تكون بيدٍ من حديد، حتى لا يتم تكرار ذلك".

أطلق الجنود الرصاص المطاطى فوق رؤوس الأهالى، أطلقت المجنزرات طلقات الرصاص الحى فوق المنازل، دخل الجنود المنازل بحثًا عن السماد، ألقوا بأسرَّة الأهالى فى الشارع، بحثوا بين الملابس الداخلية للنساء وفى صناديق أسرارهن عن أجولة السماد، لطموا الشيوخ والأطفال، أصابوا الشباب بطلقات مطاطية فى أجسادهم، أصابوا المئات من الأهالى، قبضوا على العشرات من القرية، تمكنوا باقتدار من جمع أجولة السماد من منازل الفلاحين دون نقصان باستثناء الشيكارات الثلاث التى كانت مخبأة بضريح "عدولة"، لم يتصور الجنود أن بيوت أولياء الله الصالحين يمكن أن تصلح مخبأً للسماد.

ظلت الحملة العسكرية بالقرية عشرة أيام، فرضت حظر التجوال من أذان المغرب حتى الصباح، لكن "فاتن" تمكنت من توصيل الطعام إلى منزل "حمدى" الذى كان على علم بما يدور خلال المعركة وأدت نصائحه فى العديد من الأوقات إلى تفادى إهلاك القرية، وإعطاء الكلاب حجة الإبادة.

غادرت الحملة القرية بعد أن تركت بنقطة الشرطة ثلاثة ضباط وعشرة أمناء شرطة، وخمسين جنديًا وأربع سيارات، واستولوا على بعض منازل الأهالى ليقيموا فيها بشكلٍ دائم.

لا يعرف أحد إن كانت تلك القوة لتأديب الأهالى على فعلتهم، أم للبحث عن رسالة "عدولة" و"حمدى" الهارب من الأجهزة، لكن فى ليلة الخميس التى غادرت فيها حملة التأديب القرية تمكن الخدام العشرة من الاجتماع بمنزل "حمدى"، كان "سيد الصعيدى" ضمن المقبوض عليهم من القرية، لذلك قرر الخدام ضم "زوبة" زوجة المخبر بعد أن تركت بيته، وأخذت أولاده وعاشت مستقلة تبحث عن الأمان بين الخدام وفى رحاب ضريح "عدولة".

لكن الشىء المؤكد أن السماد تم جمعه وتحميله على اللورى، ليعود لمخازن "دياب" بقرية الأبعادية، كان بانتظاره ممثلون عن الأجهزة المختلفة وبعض أصحاب المصانع الكبيرة، قالوا لـ "دياب": "بكام هذه الحمولة؟" قال: "بنصف مليون جنيه"، قالوا: "سنقتسم المبلغ مناصفة"، قال "دياب": "وحصص الفلاحين"، قال رئيس الأجهزة: "يكفيهم ما أخذوه من عقاب!!"

فى هذا اليوم دبَّ الخلاف بين الأجهزة وممثلى الوزارات على أنصبتهم، لكن الوقائع التى حدثت بقرية الأبعادية الملاصقة لمخازن "دياب" أذهلت الجميع، وجعلتهم يتوقفون عن الصراع ليفهموا ما يجرى حولهم.

ظلت الأبعادية القرية الأم للخضر، رغم بعد المسافة بينهم بنحو مائة كيلومتر معزولة عن أحداث الخضر الكثيرة، فإن خبر حصول الفلاحين على لورى السماد أشعل الموقف بالأبعادية، كان الأهالى يعانون استغلال التجار الذين يبيعون لهم السماد بثلاثة أضعاف ثمنه، كانوا يقولون للفلاحين: "احمدوا ربنا أن هناك سمادًا، البركة فى دياب باشا الذى يمدنا دائمًا بالخير لأنه ابن قريتنا، باقى القرى لا تجد السماد من الأصل"، لكن فلاحى الأبعادية أبناء المقاومين العشرة الذين ماتوا لإجبارهم بالقوة على الخروج من أراضيهم، كانوا قد توجهوا لمخازن "دياب" ليحصلوا على حصصهم كاملة من السماد.

اجتمعت ألف أسرة تُندد بالنهب الذى تتستر عليه الأجهزة وتطالب بأحقيتها، هجموا على المخازن وحمل كل واحد منهم عشرة أجولة وذهب بها لمنزله، كان ممثل الأجهزة و"دياب" يتابعان سرعة إحضار مائة سيارة أمن مركزى وخمسين (لورى) محملاً بالبلطجية من قوات الشرطة الخاصة، وخمسين عربة مجنزرة.

أحاطوا بالأبعادية وأطلقوا الرصاص العشوائى، وأصابوا الكثير ليجمعوا السماد من البيوت، كان أبناء الفلاحين العشرة المقاومين يقاومون الهجمة الشرسة، رغم مقتل ثلاثة منهم فإن الجنود والضباط سقط منهم العشرات، أعادوا بحق أرواح المقاومين والأجداد الأوائل الذين قرروا عدم ترك الأرض إلا على جثثهم.

شىء ما بدأ يلوح بالأفق، شىء ما تدفق فى نفوس البشر، حاولوا من خلاله إزاحة القيود من على رقابهم، شىء ما جعلهم يقررون المقاومة واستكمال الطريق إلى نهايته.

نشرت روح التحدى بالخضر والأبعادية المقاومة فى باقى القرى، وقرر الخدام العشرة بكل قرية أن يتسلّموا حصصهم كاملة من السماد، حدثت معارك كبيرة كان أبطالها من النساء اللائى نشرن روح الحياة وتركن منازلهن ليعدن لأبنائهنَّ الخلود، انتشرت حكايات سرقة الآثار وذهب "قارون" من قرية الخضر، جابت حكاية "عدولة" ورسالتها القطر كله، تساءل الجميع: "أين حمدى؟ وكيف تمكن مع الخدام العشرة من الهروب كل هذه المدة ليفجروا الغضب بسبب رسالة امرأة عفيفة؟"

ترددت حكايات كثيرة عن حكمة الشيوخ والعجائز وتبشيرهم بالرضا، كشف الناس فى هذه المناطق النبل الإنسانى ومعنى التضحية، أظهرت الأجهزة مدى توحشهم وعدم رحمتهم، لكن الأهالى قرروا المقاومة وعرفوا طريق الخلاص.

قالت "حمدة" فى الاجتماع الذى ضم الخدام العشرة ليلة خروج حملة "دياب": "سوف نستكمل الطريق، لا يمكن التراجع".

كان صباح هذه الجمعة مشرقًا، كانت شمسه تلقى نورًا أبيض ناصعًا على الأيادى المتشابكة للخدام وهم يرددون قسم الرضا بالمصير.

"الخراب"

فى شقة "الحسينى" كان موعد اللقاء الاستثنائى لرواد الجمعية العشرة، تجمعوا منذ التاسعة وأكلوا عشاءً خفيفًا، جهز مسؤول صندوق التمويل الأمريكى كل شىء، حين أعلنت العاشرة كان الضوء الوحيد للشمعة التى تتوسطهم يعلن بدء الجلسة الاستثنائية ، قالت "إيفلين": "سندخل مباشرة لعالم الأموات "، قال "الحسينى": "اليوم جاءنى إحساس غريب، حين رأيت وجه زوجتى التى تعيش بعيدًا عنى بأولادى"، وقالت: "سوف تتلقى طلقة الرصاصة فى كتفك الايمن، سوف تقذفك المفاجأة وأنت ملقى على الأرض، سينتشر الألم بكتفك والدم يملأ فانلتك القطنية البيضاء، ويطبع لطُعة الكبيرة على قميصك الأزرق، سوف تضع يديك بعد الثوانى الأولى مكان الطلقة لتوقف الدم، وتتعكز على نفسك تبحث بعيونك عن اليد التى أطلقت الرصاصة، لن تجد أحدًا، سيختفى الجميع بعد أن صعقوا من الطلقة وهى تتقدم لكتفك، دون أن تتمكن طاقتك المذهلة من إرجاعها للوراء".

فى هذه اللحظة تذكر المجرم الذى يعرفنى مدى إيمانى بالنموذج فأطلق رصاصته الغادرة ليمزق لحم كتفى، كان ينوى إدخالها بوسط رأسى ليجد الدم متسربًا من بين خصلات شعرى ، فى هذه الثوانى التى غبت فيها عنكم تشممت الوردة ذات البتولات الخمس، رمز الأمومة فى قريتى البعيدة قرب القدس، رغم أنى وضعتها بكراسة الرسم حتى لا يراها أبى، فإننى فوجئت فى صباح يوم غادر بضياعها، قبل اقتراب الطلقة من رأسى أيقظتنى أمى لتحرمنى النسمات الرقيقة لعطر زهورها الفتان النابض من تحت إبطيها.

لن أغفر لها أبدًا إيقاظى من جنتها، لن أغفر لها حتى ولو أدت رصاصة الغادر إلى قتلى، كان امتصاص رحيقها أهم للجنس البشرى من قتلى، فيكفى أن تشم رائحتها أنف إنسى، كان يمكن ذلك أن يجعل الحقول تغنى للمزروعات، كان يمكن ذلك أن يزيد خصوبة الأرض فتعلن ميلاد الحب الأبدى، لن أغفر لها إيقاظى وحرمان البشرية الأمان.

نظرت ناحية المجرم الغادر الذى انتهز الفرصة فى الثوانى التى غبت فيها عنكم، وحرمنى من تشمم رائحة العبير الصادر من بين أوراقها، نظرت إلى دمى المتفجر من كتفى وقلت لنفسى: "لا يهم سوف أعاود من جديد محاولات تشممها لأحصل على الرحيق الذى سيخلد شعب الله المختار".

صب لنفسه كأسًا جديدة، وقال: "إن خالد لايزال على علاقة بآن، ويمكن أن يحدثنا عن المصير والانطباعات التى راودته خلال الأيام الماضية، خاصة بعد سماع قصص تمرد الفلاحين واختلاف الأجهزة على القسمة"، رد "خالد": "راودنى الإحساس بالموت خلال هذه الأيام، قلت لنفسى أنت ميت"، كنت أقابل الأصدقاء وعمال المقاهى، لم أتصور قط أننى أحيا وسط هؤلاء البشر الذين لا يقدرون إمكانياتى، فتساءلت حزينًا: "لا يهم أن أكذب فأنا ميت، ولكن هل يكذب الميتون؟ هل يحزنون؟ أم أنهم ماتوا فلا يحسون بنفس المشاعر التى نحسها وإن كانوا يحسون مثلنا، فلماذا ماتوا؟ إن حياتهم فى العالم الآخر مختلفة، إن مشاعر الحزن والفرح والحب وانطباعاتهم غريبة علينا، إن إحساسهم بالخلود والإخلاص والرضا مختلف.

يجب أن نحس بإحساسهم، هل هناك فرق بينهم وبيننا؟ ما حدود هذه الفروقات؟ هل لصالحنا أم لصالحهم؟ هل حياتهم أبقى أم أنهم يعودون بعد الموت عن طريق الميلاد فى شجرة أو بروح مولود جديد؟ فلماذا كل هذه الدائرة التى لا معنى لها؟

أكلَّما انتهت دائرة فتحت دوائر جديدة؟ كان الآباء محقين حين شبهوا حياتنا بالساقية، أكُتب علينا السير بكل الدوائر التى لا مفر منها حتى "الموت الأبدى" أو"العودة للحياة؟" ومن يتمتع فينا بالعودة ومن يحرم من الرضا؟

تعالَ نتصور أن الحياة ليست أبدية، لكننا كالأشجار نحيا ونموت، ونعود إلى أصولنا فى التراب، تعال نتصور ذلك ثم نعود لممارسة حياتنا، هل يمكن أن نستكملها، أم ننتحر؟"

التقط الدكتور "عبد العال" طرف الخيط، وقال: "منذ فترة وهى تحدثنى عن طيبتها، لكننى أبدًا لم أهتم، عند سماعى حكايات الفلاحين بقرية الخضر وتطور نتائج بحث "جبر الرضا" أتذكر الآثار وماضى الأجداد، والكنوز التى اكتشفناها وأخفيناها لنحميها من الغوغاء، لا أعرف لماذا تذكرت كل طيبتها ورقتها وهى تحدثنى؟"

كانت تقف فوق الجبل العالى تلبس ملابس خفيفة مائلة للاخضرار، كانت كالعصفورة وأنا بجوارها، أرادت أن تسير على الهواء، تخيلت المياه الغريقة، قلت لها: "لا تغامرى حتى لا تموتى، لا تغامرى"، لم تسمع ندائى، مشت على الهواء، تحول تحت قدميها إلى بلاستيك مقوى، مشت بثقة لتقوى إيمانى بالسير وراءها، لم أقع، سرت دون خوف، حين لحقتها تزحلقت قدمى فى الهواء، شدتنى برحيقها النافذ ، قمت ضاحكًا وقلت: "سوف أصنع أجنحة للطيران"، ألقت بالأجنحة فى الفراغ، طارت بعيدة عنى كأنها تخترق الفضاء، لحقتها بعد التصاق الجناح بظهرى، جلسنا فى السماء، قمت بعمل عش من القماش الأبيض الحريري الناعم، وضعت فيه أسرة من القطن ، ألبستها فستانها، وضعت تاجها الأبيض على رأسها، كانت سعيدة، دعت كل أصدقائها وأقاربها، كل من شاهدتهم وعرفتهم عيوننا ليحتفلوا معنا، حلَّقوا فوقنا وتحتنا، أخذتها من وسط الجموع الملتفة وأدخلتها الحجرة وطرنا للسماء .

فى ركن مضاء قريب من الشمس يمتلئ بالزهور والألوان التى تميل للاخضرار أوقفت سريرنا الطائر، كانت عصافير الجنة تطير حولنا، كانت النجوم تضىء، لم تغرب الشمس رغم هطول المطر، كانت الآلهة تتفرج على المرأة التى أفجعت مشاعرنا، وفجرت دمنا لنيل الخلاص، كان الناس الذين يطيرون حولنا مبتهجين؛ لدرجة أنهم فقدوا الحزن، لم يعد إلا ألوان العصافير.

فى الحقيقة لم أحكِ جزءًا كبيرًا من القصة، كنت قد اقتطعته دون إرادة منى؛ لأننى أتذكر أن غابة مرعبة خرج منها وحش كبير، يشبه وجوه وضراوة الفلاحين فى القرى البعيدة حاول ابتلاعنا، فأدخلنا فى فمه قطعة حديد مدببة حتى لا يفرم أجسادنا، كان يقرقش الحديد، لكن قبل أن يغلق نهاية فمه كنت قد وضعت قطعة أخرى كبيرة من الحديد المسموم تحت لسانه، فحال دون غلقه، فأخذت يمامتى من بين فكيه وطرت بعيدًا.

لم يتركنا، طار وراءنا مع الوحوش ، وجدت نفسى أتحول إلى نسر كبير، وأمسك سيفًا أطول من الوحش، غرسته فى فمه وشطرته نصفين، قطعت فمه وذيله، ليصير قطعًا من اللحم المتناثر، هربت الوحوش خوفًا من جبروتى، أخذت يمامتى التى كانت خائفة منى، وضعتها بجوار النهر فى بلدة القناطر الخيرية، لكن الحنش المتوحش الشبيه بالصيادين جاء إليها، حاول أن يبتلعها فى جوفه القذر، كانت ضربة منى بمنقارى الحاد فى سقف فمه كفيلة بطردها من بين أسنانه، أخذتها بعيدًا وقلت: "ليس لكِ مكان على الأرض"، طرنا معًا، همست برعب: "أنت نسر وأنا يمامة، أخاف منك".

لكن الآلهة سمعتها، فحولتنى إلى يمامة طيبة، ملست على شعرى وحضنت كبدى، اقشعر جسدى وتحول ريش النسر إلى ريش ناعم ليمامة مغردة تحمد ربها، طرنا معًا فى الهواء، لعبنا كل الألعاب، فى لحظة لم أعرفها وجدتنى أسرق حجرتها الحريرية البيضاء وفستانها الفضى اللامع وتاجها المرصع بالذهب الخالص؛ لأحرمها من ملاقاة سيدة الملائكة التى ظهرت للمسيح لتحمى روحه.

فى الصباح اكتشفت أن حياتى خاوية، فليس للمرأة وجود بحياتى سوى بالأحلام، أزعجنى ذلك وقررت الانتقام من "عدولة".

استعرض كل واحد من الرواد تاريخ الانطباعات التى دونها منذ الاجتماع الأخير، حاولوا أن يجيبوا عن سؤال "إيفلين" التى تركت لكل واحد فيهم الحرية فى اختيار الطريق لمواجهة الغوغاء.

قال "دياب": "إن ظهور أدعياء جدد يحاولون أخذ حقوقنا التاريخية فى ماضى الأجداد هو الخطر الرهيب"، حكى بصراحة عن مشهد صراع الأجهزة وأصحاب المصانع والمزارع الكبيرة على حصتهم فى السماد مما حفز الفلاحين لمهاجمة المخازن، أكد "بيجاد" أن الوقت قد حان لتأديب الجميع، يجب أن تقوم الأجهزة بتوزيع السماد بشفافية، استعرض تاريخ الحركات والاتجاهات المختلفة، وأنهى حديثه بحزن قائلاً : "إن الجميع لا يقدرون ما تقوم به الجمعية الدولية للروحانيين لنشر السلام".

استكمل الدكتور "عبد العال": "إن علينا أن نتقدم خطوة فى اتجاه الحرية"، قالت "إيفلين": "يجب أن نعرف ما يجرى بالقرى من خلال عصابات الأربعة بكل بلدة"، سألت "دياب": "لماذا أخذتم قرارًا مع الأجهزة بزرع قسم للبوليس داخل الخضر، إن نتائج البحث سوف تتأثر كثيرًا بوجود هؤلاء الطيور مع الحالات بمكان البحث"، رد "يوسف": "كان إجراءً ضروريًا لدرء الفتنة بالبلاد المجاورة"، صمتت الدكتورة "هدى" و"ربيع" فى هذه الليلة، خاصة حين قرر "فرنسو" دعم "دياب" بضرورة هدم وحبس كل سكان قرية الخضر، وجلب فلاحين جدد لاحتلال مساكنهم، قالت "إيفلين": "إن ذلك سيدعم بناء التاريخ الجديد للمنطقة ويطمس جزءًا من الشرور التى أطلقها بعض الجهلاء بالقرية".

لكن الشىء الأهم كما قال "فرنسو" ودعمه "دياب": "إن هدم القرية وتهجير السكان سيتيح لنا الكشف عن السر الذى يخفيه خطاب عدولة الشريرة ومعرفة مكان حمدى، ووقف اجتماعات يوم الخميس الحزين التى تعقدها جماعة الخدام العشرة، والأهم من كل ذلك هو هدم الضريح الذى أقامه الأهالى لعاهرةٍ لقيطة".

"جزيرة الشر"

فى جزيرة معزولة وسط المياه على سطح الكرة الأرضية وبالقرب من مملكة تايلاند، عقدت الجمعية الدولية للرواد الروحانيين اجتماعها السنوى، بهذا المكان لا تخضع العلاقات بين الناس فى الجزيرة لقوانين الدول، تدير الجمعية الميناء والمطار، وتحاول جاهدة أن تبتعد عن صراعات الحكومات ليدعموا نشر رسالتها ليعم السلام الأرض.

ضم الاجتماع السنوى نحو ألفى شخص من العالم هم مجموع الرواد العشرة بكل دولة، كان الاجتماع المنعقد لمدة أسبوع يناقش تطورات الروح فى البلدان المختلفة، ويعطى النصح للرواد وأتباعهم.

كانت أهم جلساته هذا العام تتعلق بتطور البحث فى قرية الخضر وتونس، كان مجلس الرواد العشرة للجمعية الدولية يعلم كل القصة من "فرنسو" و"إيفلين" عن طريق لغة التخاطب، والتى تتم من خلال أجهزة الإشعاعات الحديثة التى تنقل انطباعات الناس فى كل الأماكن، كانوا يعلمون بكل الخبايا باستثناء موقع "حمدى" ورسالة "عدولة" ، أظهروا استياءهم أمام الجميع من الرواد العشرة ببلاد الأجداد الأوائل، قال كبير الرواد الدوليين: "ليس من فخر الجمعية أن تخفى أسرارًا فى العالم ضمن سراديب الذهب وخلافات الساسة".

أحس "دياب" و"بيجاد" أن العتاب مُوجَّه لهما، فقال "دياب": "إن الصراع على حصص السماد كان سببه عدم العدالة فى قوانين التقسيم بين الأجهزة والصناع الكبار، حاولنا أن نثنيهم عن الخلاف، لكنهم أصروا على خوض المعركة للنهاية".

رد "بيجاد": "لم نكن نتوقع أن يخرج الرعاع منتهزين فرصة الخلاف، كنا نعتقد ككل مرة أن إطلاق رصاصة مطاطية فى الهواء سوف يجعلهم كالحملان، لكنهم أصروا على غير توقعنا على استكمال الطريق ، لم يكن هناك بد من استخدام القوة"، ردت أمينة جمعية الرواد الدوليين: "كيف تظهرون أمام البشر وأنتم تقتلون الناس كمدعين للسلام؟! أنتم تطعنون صلب الرسالة، لكن الأهم أنكم عاجزون عن معرفة مضمون رسالة امرأة لقيطة، وتركتم الحالة موضوع البحث، "حمدى" هارب، كيف يمكن أن نتوصل إلى النتائج إذا كانت الحالة النموذجية الوحيدة فى العالم، والتى كانت تمدنا بالانطباعات قد اختفت؟"

قال "فرنسو" بثقة: "إن المعركة لم تنتهِ، سوف نستكمل عملنا حال عودتنا لتونس لنكشف الأسرار ويعم السلام مرة أخرى"، أكد أمين صندوق الجمعية الدولية أن الكنوز المخبأة بأراضى قرية الخضر وتونس والأبعادية وخلف بركة "قارون" مازالت تحتاج لمزيد من الجهد لحماية آثار الأجداد من عبث الجهلاء.

همست "إيفلين": "سوف نعيد من جديد رسم شبكة التنقيب حتى تصلكم حصصكم كالعادة، لن نتأخر كثيرًا، يجب أن نتحمل فاتورة التغيرات فى المرحلة الانتقالية، فالسلام رسالتنا، لن يتم إلا بمزيد من التضحيات".

فى المساء اجتمع الرواد العشرة مع مدير الجمعية الدولية فى منزله بناءً على دعوته لدعم مسيراتهم فى البحث وحماية التراث، قال للدكتورة "هدى" بعد غلق نور منزله ولم تتبقَّ إلا شمعة يتيمة تحاول مجابهة كل هذا الظلام المنتشر: "ما رأيك يا دكتورة فيما جرى؟ لم نسمع

كثيرًا انطباعاتك وأنت الخبيرة فى معرفة عمق المشاعر الإنسانية للنساء الفلاحات اللائى استمتعن بالخبز للخلاص، كيف يسير بحث "جبر الرضا" فى المناطق المختلفة ببلادكم؟"

ساد الصمت دقائق، ملأت خلالها الدكتورة "هدى" كأسها وشربتها مرة واحدة، وقالت: "كنا نسير بعد الاجتماع الأخير كأننا فى حرب بمنطقة صحراوية، ظهرت من بعيد أشجار ومزروعات، شاهدنا مياه نهر النيل تلمع بزرقته فانبهرنا، كيف يوجد وسط هذه الصحراء البعيدة مياه صالحة للشرب، ازداد طمعنا لننتج الحياة، استكثرنا على الفلاحين أن ينعموا فى الرضا ويتركوا العالم يعم فى الحروب، كنا جوعى فظهر لنا الطعام أسفل برج عالٍ، وقفنا أعلاه ننتظر النزول واحدًا تلو الآخر على سلالم من الحبال، حين وصلنا إلى قاع البرج، كانت هناك امرأة تضع سندوتشات الفول على صينية أمامها وتضع بإبريق نحاس المياه الساخنة، وتصب الشاى للمريدين.

كان الناس يتزاحمون على المرأة خوفًا من انتهاء الطعام أو الشاى، أو عشقًا فى طعمه ورائحته، وجدت نفسى مرة أخرى أصعد فوق قمة البرج، تركت الرواد التسعة بحجرة المرأة التى تملك الطعام والمياه، امتد حبل طويل من أعلى البرج المطل على مياه النيل إلى الشاطئ الثانى، كان يدعونى لأتدحرج عليه رغم أننى سأبتعد عن خيمة المرأة أسفل البرج وطعامها والرواد التسعة، لم يكن هناك أمل للنزول من فوق البرج العالى إلا بامتطاء هذا الحبل.

فجأة وجدت نفسى أمسك الحبل وأتدلى عليه لأصل إلى الشاطئ الثانى، حاول "دياب" قطعه لتبتلعنى مياه النيل، لكن القدر ساعدنى، حمانى جمع كبير بخيمة المرأة التى تدعى "عدولة"، حين اختل توازنى فاستولى وحده على الطعام، بالرغم من أننى كنت أطير بالقرب من خيمتها.

نزلت على البر الثانى، وجدت نفسى بمدينة غريبة، كانت الشوارع مقفرة، جلست على مقهى موحش، طلبت شايًا وطعامًا، كانوا يستغربوننى، ومع ذلك حين جاءونى بالطعام وجدت الضابط "دسوقى" بصحبه "بيجاد" و"خالد" يخطفون اللقمة من بين يدى ويقولون: "يا عاهرة سرقتِ خيمة عدولة، سوف نقيم عليكِ الحد، وقطعوا رأسى دون سماع حكايتى".

أدار مدير الجمعية الدولية باقتدار هذا الاجتماع ليعرف حكايات الرواد العشرة، وانطباعات البشر فى أرض الأجداد الأوائل، فقال لـ "ربيع": "أنت من أبلغنا عن طريق جهاز الإشعاعات بالحكاية، كيف وصلت الأوضاع إلى هذا الخطر؟" قال "ربيع": "حين زجرنى الدكتور "عبد العال" ، وقال : "لقد تطور العالم، لا نحتاج لترجمتك، أنت موقوف عن العمل، "صُدِمت، اتصل بى "فرنسو" بعد أن شعر بالظلم، وقال: "لا تخف فقد أعادك الرئيس إلى العمل مع تغير صفتك من مترجم إلى مرشد"، اغتبطت كثيرًا لترقيتى بعد هذا العمر للعمل بالمركز".

استكمل "فرنسو" بمكالمته أخباره السعيدة فقال: "يجب أن نحتفل وحدنا بهذه المفاجأة السارة، كانت ليلة مبدعة، طهَّرنا فيها البشرية من الدنس، ونحن نعاشر بعضنا، كانت أجسادنا المتلاصقة تلك الليلة تعبر عن تلاحم الأرواح والمصير المشترك للبشرية لإبداع روح الحياة، تذكرنا أجدادنا الأوائل وهم يتعلَّمون تقديس الجسد، ويتلمَّسون أعضاء بعضهم فيحسون بقشعريرة غريبة، كانت أكثر المناطق إحساسًا هى الأعضاء الذكورية والأرداف، تخيلنا أن الله خلق للذكر كل مقومات العشق، وحرم المرأة منها لجريمةٍ ارتكبتها، تذكرنا فى تلك الليلة "عدولة" ورسالتها"، قال "فرنسو": "لم أتوقع من هذه العاهرة اللقيطة أن تضلل أجهزة دولية وجمعيات بحجم خبراتنا، لكننا مع ذلك اندهشنا لغرام الرعاع بها، فخلدوا ذكراها بإقامة ضريح باسمها".

فى هذه الليلة أكد أن النتائج التى توصل إليها الناس فى القرية سوف تبرهن للعالم أنهم يقدسون نساءهم العاهرات، أى رضا بالمصير يمكن أن يدلل على أرواح الناس المستكينة فى هذه المناطق؟!

تحررنا من الانحياز للبشر فأحسسنا بالسلام، حامت رسالة الجمعية حول سريرنا، اندمجنا وتعايشنا على موسيقا رائعة، أحسسنا بالتناغم فى العالم، بهرتنا ألوان الأزرق والأحمر والأخضر التى كانت ترسلها لنا أرواح الملوك والآلهة التى عبدها الناس لفحولتهم، قررنا التوحد مراتٍ كثيرة، نظر "ربيع" حوله فى فخر واستطرد: "كان شبق فرنسو فى هذه الليلة يدعونى للجنون، قذفت بأردافه وفمه عشرات المرات، لم يكن يشبع أبدًا لكنه تركنى نهاية الليلة، واتصل بالدكتورة هدى ليظهر لها مدى قوته وفحولته، تركنى وحدى أسير بالشارع بعد أن فضل علىَّ فرج امرأة".

كنت حزينًا، وأنا أتوجه لمكتبى الجديد بمركز البحوث، قابلنى عدد من الموظفين، كانوا منبهرين من عيونى، كانوا يضحكون فى وجهى فأحسست بالعظمة، قلت لنفسى: "إن وجهى اليوم جميل"، فجأة تلبسنى إحساس بالشماتة، خفت أن تكون ضحكاتهم استهزاءً بى، فصرخت كاتمًا صوتى: "سوف أحول هذه الوجوه الجميلة إلى ملامح سوداء قذرة، فتقوم مرتاعة مهتاجة تسير فى طريق الخروج بلا عودة"، لكنى سألت نفسى حينما جلست على مكتبى: "أين الطريق الذى سنمر فيه؟ " تأسفت لأننا لا ندرى حتى اليوم متى ستغيب الشمس، وتغادر إلى بيوت لا تعرفنى، أكُلّ البيوت لا تعرفنى؟ أكل البيوت تطردنى؟ إلا بيت زوجتى التى أكلت كتفها وهبرت قلبها، وتركتها مع ابنتى "مى" وحيدة، سألت نفسى للمرة الأخيرة فى حياتى: "هل تستطيع وهى حزينة أن تحتضن قلبى، دون أن يكون فى عينى حصوة ملح واحدة لأطبطب عليها؟"

كانت "مى" كالنسمة ومع ذلك تركتها وأنا أشكك فى خيانة زوجتى، قالت أمى: "اللقيطة حملت سفاحًا"، حين علمت زوجتى "فاطمة" بانطباعاتى ألقت بحقيبة ملابسى فى الشارع، علمت وقتها أن "عدولة" يجب أن تختفى للأبد، ليس للقطاء مكان فى عالمنا.
أضحى النهار على وشك الخروج فى المدينة ، فأعلن كبير الرواد الدوليين نهاية الاجتماع، وقال بأسى: "سوف تمرون بأيام صعبة، يجب أن تتحمَّلوا لتتجاوزوا المحنة؛ إن كنوز الأجداد وآثارهم فى خطر، جهزوا أنفسكم للمعركة، الرسالة فى خطر يجب أن يعم السلام وينكشف السر".

أخذ "فرنسو" يد "إيفلين" وخرجا للشرفة، وترك الرواد يخرجون فرادى دون وداع إلى البيوت الخشبية المزيَّنة بأجمل اللوحات كمبيت لممثلى البلاد البعيدة، الذين أذهلوا العالم طوال التاريخ الطويل بنشر السلام رغم التضحيات.

"القيود"

أعادت مقابلة "سالم" السائق صديق "شرف" لـ "آن" فى مرسمها عصر هذا اليوم كل ذكريات الشهور الماضية، فجأة تذكرت رحلة هروب "حمدى" من جبانة الأجداد الأوائل خلف مياه البركة فى الليلة الأخيرة التى حرمت فيها من الاستمتاع بدفء قلبه، لم تنطق لأحد باسم المكان الذى يختبئ فيه، رغم الضغوط التى مارستها الأجهزة على مشاعرها الرقيقة.

أعاد وجود "سالم" ذكريات الليلة الأخيرة وهى تتعرى أمام "حمدى" بمنزل "هدى" فى قرية تونس وهو يلامس أعضاءها فيعيد لها الحياة، وتتفجَّر روح الأنوثة المبدعة فى جسدها، وتنام ليلة لم تكن لتنسى أحداثها قط.

أطلق بمرسمها كل الحنية للوحة الخدام العشرة الذين واجهوا الموت بقرية الأبعادية وهم يرفعون المناجل فى وجوه رجال الأجهزة و"دياب".

كانت شهورًا صعبة وهى تقف وحيدة وسط هذه البلاد، بعد أن حُرِمت من حماية "فرنسو" ووشاية سفارتها لوزارة الخارجية بضرورة ترحيلها للخطر الداهم على حياتها.

تذكرت حنية والدها منذ ميلادها بقرية "الزهرة" القريبة من أمستردام وهو يحملها، ويعلمها عشق لون السماء والماء والزرع، لكن القدر الذى اختار لها فى النهاية هذه العزلة وسط مرسمها بمدينة الأجداد الأوائل قد استجاب أخيرًا ليعيد روحها للحياة.

كانت تتلحَّف بروح أمها لتحميها، استخدمت علاقتها بـ "خالد" لتأمين حياتها، قال "سالم" حين دخل عليها: "أنت تعرفيننى!" قالت: "نعم"، استكمل: "لم يعد هناك وقت، إنهم يحيطون بالخضر لهدمها، لم يكن أمامنا إلا الاستعانة بك لتقفى معنا فى وجههم"، تساءلت: "أين حمدى؟" رد: "إننى أبلغك رسالة الخدام، ولا أعرف ما بينكم أو أية معلومات أخرى، إنهم يحتاجونك، لا تتأخرى"، وتركها وخرج مرتديًا ملابس غريبة أشبه بملابس عساكر الجيش، ركب سيارة، وفر من أمام المرسم.

نظرت من الشرفة وتساءلت: "ماذا يخبئ القدر؟" تمكنت بعلاقاتها ببعض الفنانين والمسؤولين بالسفارة من التصريح لها بتنفيذ مشروع لتعليم أطفال قرية الخضر الرسم والأحلام؛ لإعادة مجد هذه البلاد فى الانطلاق.

رغم معارضة السفير نتيجة الخطر الداهم على حياتها، لكن علاقاتها ببعض أعضاء مجلس النواب بهولندا جعلته يوافق على تنفيذ المشروع رغم ذكره بتأشيرته أنه نبه على الفنانة بالعقبات، لكنها قررت المغامرة على مسؤوليتها الشخصية.

علمت من أصدقاء مقربين لبعض الأجهزة والمشتركين معها بنوادى الشواذ والفنانين أن اختفاء "حمدى" هو الخطر الأكبر على نتائج بحث "جبر الرضا" الذى سيحدد شكل العالم.

فهمت أنه الحالة الوحيدة التى قبلت دون اتفاق أن يصبح نموذجًا لمدَّهم بالنتائج، بعد أن يدخلوا لقلبه البيانات والمعلومات فيختبرها وسط الناس، ثم يعيد إنتاجها للأجهزة عن طريق

الإعلام، لكنـه تمكـن مـن الاختفـاء، ولا يـدرى أحد النتـائج المترتبـة علـى ذلك، خاصـة أن الضـوء الذى سيرشدهم للسر قد اختفى.

المؤسف من وجهة نظر الأجهزة أنه حمل مع اختفائه رسالة لعاهرة لقيطة يمكن أن تؤثر فى إعادة إنتاج نموذج "جبر الرضا" نتيجة مشاعر يجب أن ينتهى العالم من ذكرها مرة أخرى.

تيقنت مـن رؤيتـه قريبًـا، لكنهـا تعـرف أن الأجهـزة سـوف تعلـم بقرارهـا، فترددت لرحلـة الخضر حتى لا تنتقم الأجهزة من الأهالى و"حمدى" وضريح "عدولـة"، لكنهـا حسمت ترددهـا لأنهم يحتاجونها وبالتأكيد هم يعرفون حجم المخاطرة، قالت لنفسها: "لن أتردد سوف أذهب فـى الصباح للقرية، لن يعوقنى شىء"، قبل أن تنام تذكرت أنها عادت لمنزلها بعد الخروج من مبنـى السفارة لقرية تونس تبحث عن حقيبتها التى تركتها بعد أن وضعت فيها رسالة "عدولـة" التـى أحضرتها "فاتن"، لكنها للأسف لم تجد الحقيبـة، كانت متأكدة أنها لم تقع فـى يد أحد من الرواد العشرة أو أتباعهم وإلا كانت قد عرفت، فهى مازالت على علاقة قوية بـ "خالد" الذى أصبح ضمن الرواد العشرة الذين يديرون الجمعية.
تعرف كيف تخرج الأسرار من قلبه الولهان ، كانت تعرف أنه مريض بالعجز الجنسـى، وأن "فرنسو" يعاشره لينعم عليه بلذة الجنس، لكنـه كان علـى يقين بأن قبول "آن" الزواج منـه سوف يعيد رجولته مرة ثانية، فى مقابل ذلك كان يحكى بحذر عن حياتـه دون أن يذكر أيًا من الأسماء والشخصيات مصدر هذه الأحداث.

لم تنعم بليلة هادئة، وظلت طوال الليل فى حالة توتر وقلق وتساؤلٍ دائم، قامت وأمسكت ريشتها وقررت العمل بلوحـة "جبر الرضـا" التـى ستكتمل ألوانهـا وتناغمهـا، وأبطالهـا بالسفر للخضر واكتشاف السر.

فـى هذه الليلـة الموعودة تتذكر أن عيونهـا غفلت لدقائق، شاهدت اللوحـة مكتوبًـا عليهـا "كلمة واحدة"، كانت حبيسة فى قلبها كأنها بسجن كبير، كانت اللوحة كرجل ضخم، كانت كالقزم داخلها والرجل يلاطم البحور والجبال والبشر والوحوش وهى تجلس بداخله خائفة مرتعبة، كانـت تحاول الخروج من جسده الرهيب، رأت خارج جسده أهالى الخضر كالأقزام بالقرب من قدميـه الحديديتين، يحاولون فك أسرها، كانوا يحملون الفؤوس والمناجل، ويحاولون فتح باب قدمـه ليدخلوا إليها أو يخرجوها من سجنه، كان الرجل الوحش يقتل منهم العشرات لمنع فتح الباب أسفل قدميه، لكنهم تمكنوا فى النهاية من فتح الباب وتقطيع قدميه.

حين رأت النور المشع من وجوههم ذُهِلت، رحبوا بوجودها بينهم، اختل توازن الرجل المارد مقطوع القدم وهو يحاول السير بقدم واحدة، فسقط وسط مياه المحيط المالحة بعد أن بطش بالمئات، لكن روعة الطريق ونور الصباح وهى تسير بسيارتها بجوار بركة "قارون" أذهلها.

تمنت أن تعيش الباقى من العمر فـى هذا المكان فـى حضرة حبيبتهـا "عدولـة" ورفيق روحهـا "حمـدى"، لكـن الأهـالى ورسـالة "عدولـة"، والخـدام العشـرة ومعركـة ميـدان الخضـر، وأطفال الفلاحين، وليالى الخميس المبهجة، وهى تعلمهم التحليق فوق قريـة الخضر ليشاهدوا الجمال والروعة بالشوارع والحقول ينتظرونها؛ لتضـىء لهم طريق النهايـة، قررت أن تتصدر "عدولة" لوحتها "جبر الرضا" التى سمتها "الخلاص".

"الخدام "

قالت "إيفلين" حين دقت الساعة العاشرة والظلام عم المكان: "الليلة بدون شموع، عنوانها "الموت يخلق الحياة"، من الذى يرغب فى الموت ليحدثنا عن الأجداد الأوائل والمعارك التى قادتها الإمبرطوريات لبناء مجدها، والثمن الذى دفعته البشرية للحفاظ على التاريخ الدموى الذى جعل الإنسان والأرض مصدر إلهامٍ للآلهة؟"

أعادت السؤال مرة أخرى: "من يرغب بالموت؟" التقط "بيجاد" طرف الخيط وقال: "فى الجبانة التى تقع خلف البركة، أجدهم يعودون للحياة مرة أخرى، ويطالبوننى بوقف سرقة ممتلكاتهم، قلت لهم إننا نحافظ عليها من عبث الرعاع، طالبونى بحماية الماضى، رفعت سيفى من فوق حصانى الطائر، وقلت لهم أعطونى أجمل بنت لديكم بالجبانة، قذفوا برأس أميرة من الذهب، تحدثت إلىَّ كزوجة لكننى قطعت لسانها، كان يزن عشرين كيلو من الذهب الخالص، فوجئت برجال يحيطون بى، صرخ "فرنسو": "ماضى الأجداد ليس للنهب"، أخذ رأس العروسة وطار به لمكانٍ لا أعرفه، أحسست بالحزن يملأ قلوبهم لفقدى رأس ابنتهم، حلت لعنة الموتى بسبب صراخهم المتكرر بأسماء آلهة وثعابين وحيات جاءت من كل الدنيا لتلتهم جسدى رغم أننى أصبحت ميتًا، لكن قلبى كان ينبض بالحياة.

فقدت الأمل فى العودة والعيش مع الأصدقاء، تجمعت الدنيا فوق رأسى، قررت أن أمارس الحياة كالميتين، بدأت رحلة طريق العيون الجارحة، فى تلك اللحظة لن نخشى حرق قرية الخضر، لن نرتدع، كنت أرغب فى مواصلة طريق الميتين حتى النهاية تعشمًا فى المجد.

حزمت أمتعتى وقررت الذهاب لمنزل "دياب"، وجدته ميتًا، قلت: "قُم لتشاهد بنفسك ما آل إليه البيت من خراب"، حين وصل جسد "يوسف" قابلته امرأة على أول الطريق وقالت: "خربوا البلد، نهبوا كل شىء، الرعاع حرقوا الجمعيات والزراعات، لم يتبق إلا الغل فى بلاد الأجداد".

تركتها دون أن أرد ، دخلت الحمام وقررت النوم، فجأة وجدت الأحياء يصرخون فى الشوارع ضد الأموات، ويطالبون بنصيبهم من الآثار والذهب المسروق، فى الصباح أخذتنى قدمى بعد أن اغتسلت ولبست ملابسى وذهبت لعملى فوجدت الأبواب مغلقة، سألت أحد الأحياء الذى كان يصرخ: "ما الحكاية؟" أجاب: "الخلاص".

قابلت "رضوان" إمام المسجد الذى أصلى به بجوار العمل، عرفنى وقال: "أنت بيجاد خادم الحرمين، أنت المنال والرضا، المستقبل أمانة فى رقبتك"، لكن الجنون الزرق قالوا: "أنت كاذب ومنافق، كيف ستخرج فوق مآذن وكنائس المدينة وتنادى بالصلاة؟!" كان تاريخى الحى يؤكد عدم منطقية ذلك، فقرر "فرنسو" و"إيفلين" حرق التاريخ لأصعد دون ذكرى تكشف للناس كذبى، قلت لنفسى: "أية حياة سعيدة التى نفقد فيها الزمان أو المكان؟ استبدلنا بتاريخ الأبطال ماضى الأنذال، أية قوة ملأتنى وأنا أعتلى مِنصَّة الكذابين الميتين وأنادى بوحدة البشر؟"

قابلت الرواد العشرة على مدخل قرية تونس، قالوا لى: "أنت حى يا بيجاد لا تخف، أنت حى لا تهتم بأصوات الضحايا"، كانت زوجتى العاهرة تضع المساحيق على وجهها، وتطالبنى بالمزيد من المال، لكننى نهرتها وقلت لها: "حين أعود للحياة، سوف تنعمين فى الرخاء"، فقالت: "أى رخاء أيها الميت؟!" وصرخت لتخفينى: "أنت ميت".

في هذا الوقت ذهبت للشيخ الذى عقد قراننا ليفسخ عقدها، بعد أن أنهى مهمته قتلته وشربت من دمه؛ لأنه السبب فى ارتباطى بهذه الفاجرة اللقيطة.

شاهدت أختى تبكى وتقول: "أتوسل إليك أن تعود يا بيجاد لتعطينا الأمان"، صممت على مشاهدة جسدها المجروح بسكين زوجها، لكن الميتين أكدوا لى بأن تلك المشاهد لن تعود مرة أخرى، ففى عالم الأموات والجبانات والآثار والبرديات لا توجد مشاعر، المهم هو أن تسير بالطريق حتى النهاية وسوف تحصل على السر، قالوا كلامًا عن الأجداد الأوائل وإبداعهم الحب وسط الحقول، وجاء الأنبياء بعدهم ليخلصوا البشرية من الظلم فوقعوا أسرى الميتين، وتعالت الأصوات لتأخذنى من الجبانة وتلقى بى فى تونس مرة أخرى، لأشاهدكم الآن كما فى عالم الميتين تصرخون مثلى من الألم ومن الأيام الصعبة"، صمت لحظة ثم فرغ كاسًا كبيرة فى قلبه لينهى حديثه.

قالت "إيفلين" بعد أن أخذت كأسها بيديها: "شاهدت بيجاد فى هذه الأيام محاصرًا من الأجداد الأوائل، كان شجاعًا وهو يتلقى الاتهامات ويخرج كالمحتال، ليبرر هزيمته وضعفه، لكنه تكبَّر ولم يشاهد مظاهر الحياة التى تحيط به، لم يحس برحيق الزهور أو خرير المياه أو خصوبة الأرض أو إنبات البذور، لم يشاهد أمهات العجول وهى تلحس وليدها لتمدنا بالأمل، لم يشاهد فى الجبانة والخضر وتونس والأبعادية سوى الموت، فحلت عليه لعنة الأجداد الأوائل ومات معزولاً فأخذه فرنسو ليضع فى قلبه الروح الجديدة لجبر الرضا ليستكمل دوره بإتقان".

حاول "فرنسو" من خلال "بيجاد" اكتشاف سر هؤلاء المتحذلقين المتاجرين بالآم البشر فوق منصات العهر، وهم يطلقون الأكاذيب لتضيع فى طرقات الناس الأمانى المشتركة بالمصير، كان "بيجاد" سياسيًا بارعًا استحق أن ينال منصبه كأعلى سلطة للقوادين فى عالم الخيانة السلفى الذى يدير البلاد، اكتشفنا مرة أخرى السر الذى حاولت "عدولة" أن تخفيه عنا، وهرب "حمدى" بعيدًا حتى يضلل نتائج بحثنا، إنه الخلاص الذى يطارد رسالة السلام، يجب أن نتكاتف لنقضى عليه ونكشف السر الذى سيجعل العالم واحة للأمان، فى هذا الوقت لن نحتاج للشمس أو للحياة لأننا سننعم فى الخلود".

التقط "يوسف" الحديث فأكد أن: " الموت اللعين يلاحقنا ليحرمنا اكتشاف الحقيقة"، وأكمل "فرنسو" وضوء النهار يقترب قائلاً: "مع ذلك يمكننا أن نعيش وسط هذه المآسى"، ردت "إيفلين": "سوف نستكمل غدًا، يجب أن نرحل لعالمنا، لنفهم آثار الخلاص فى قلوب الأبرياء".

ذهبوا جميعًا للنوم وهم مشغولون بالسؤال عن البهجة خلال رحلة الموت، تساءلوا فى صمت: "هل يمكن إعادة إنتاجها جبرًا؟ هل يمكن للموت أن ينتج الحب؟" كان السؤال الأساسى فى الليلة التالية الذى أعادهم من جديد للبحث عن الحياة، هو قرارهم بحرق قرية الخضر، لمعرفة السر، وطمس تاريخ الخدام العشرة الذين قاوموا "رشاد" المخبر وعصابته صباح يوم عاشوراء، كانت إبادة القرية إيذانًا بمعرفة سر الخدام العشرة بكل قرية والذين قاوموا القبح، ومنعوا الأذى وسلموا للأهالى حصصهم الكاملة من السماد، وبدأت الدعوة تنتشر لدرجة أذهلت مجلس إدارة جمعية الرواد الدولية، قالوا عبر رسائل الإشعاعات الانطباعية: "كيف لجهلاء عملوا كعبيد بأرض الأجداد الأوائل أن يشكلوا خلايا تقاوم قوتنا فى السيطرة، إنهم يخربون أسس السلام، يجب مقاومتهم قبل إغراق العالم فى الحروب"، وكان ذلك إعلانًا منهم بالموافقة على حرق الخضر وإبادة الخير.

التقطت الجيوش والجنرالات الخبر الذى أصدرته أجهزة الإشعاعات والانطباعات، وأطلقوا المجنزرات وقوات الأمن المركزى تبحث عن الخدام العشرة بكل قرية لحرقهم.

"الصندوق"

حمت حيلة "فاتن" الرسالة من الضياع، فبعد أن سلمتها لـ "آن" ووضعتها فى حقيبتها وتركتها بمنزلها وخرجت للبحث عن "حمدى" طلبت من خالها "شافعى" حارس بوابة "فرنسو" أن يخفى حقيبة "آن" ويعيدها إليها بقرية الخضر.

كان "شافعى" الذى حرم أخته من تقاسم القيراطين اللذين ورثهما عن والدهما ينوى تطهير روحه، فأضحى كالعبد أمام طلبات "فاتن" الكثيرة، كان يلبى رغباتها بحب لتغفر أخته الميتة جحوده.

احتفظت بالرسالة فى الصندوق الخشبى الصغير مع صورها التى التقطها مصور أجنبى على حافة البركة أيام كانت طفلة، كان الصندوق الذى تملؤه بالذكريات هو الشىء المتبقى لدى كل امرأة فى رحلة حياتها القاسية، لم تفتحه منذ زواجها إلا قبل خروجها من منزلها طالبة الطلاق، ثم أعادت فتحه حين وصلت رسالة "عدولة" وخبأته وسط ذكرياتها.

الصندوق هو الأمل الذى تنتظره البشرية لتتخطى مرحلة القهر، كان محتوى الرسالة هو الطريق الذى يُعبِّده الخدام فى كل الدنيا.

حين حضرت "آن" للقرية واستقبلها الشيخ "موسى"، أسكنها البيت نفسه الذى عاش به "حمدى" بجوار منزله ، أحست بوجوده، بحثت دون أن تدرى عن مكان الرسالة علَّها تجدها، لكن "فاتن" سبقتها، ومع ذلك طلبت من الشيخ أن يأتيها فى الصباح بعشرة أطفال نصفهم من الفتيات لتعلمهن الرسم، كان هناك ثلاث حقائب مملوءة بالأوراق والألوان، والأفكار لتعليم أطفال هذه القرية التحليق بالسماء لرؤية الأحلام.

رغم البرد والأحداث الرهيبة التى تمر بها قرية الخضر فإن الشيخ أدخل الحقائب، وقال متعجبًا: "ستكون عندك فى الصباح!!"

أحضر لها بعض الطعام فرفضته، قالت إنها ستتكفل بإطعام نفسها، كان دكان "فاتن" الذى فتحته للبقالة قريبًا من منزلها، قالت: "إن حقائبها مملوءة بعلب التونة والجبن والخبز" ، اطمأن الشيخ رغم تحذيرات "دياب" التى مازالت ترن بأذنيه وهو يبلغه بضرورة تجهيز مكان جيد لإقامتها وحمايتها، قال بحذر شديد لـ "موسى": "يجب أن ترتب مع المخبر كى لا تغيب عن أعينكم".

فى تلك اللحظة كان الخدام العشرة يجتمعون بليلة الخميس المبهجة ليحددوا مصيرهم، قال "حمدى": "إن هناك حملة ضخمة سوف تحضر للقرية لتأديب الفلاحين"، ردت "حمدة": "ليس أمامنا وقت، سوف نخرج لنلتهم الأجهزة قبل أن تقتلنا"، استكملت "خديجة": "لن تأخذنا بهم رحمة"، صرخت "زوبة": "المجرمون اتفقوا على إزالة الخيوط التى تجمعنا، لتعيد الغل والتوحش، متى نتحرك لحماية الخضر؟"

لكن "فاتن" أعادتهم للحاضر فقالت: "عادت آن بناءً على طلبنا"، رد "ضاحى": "سوف تحمى ظهورنا من الغدر بسرد حكايتنا"، همس "حمدى" لنفسه متسائلاً وهم يسمعون صوته

الحنون: "أين هى الآن؟" استجابت "فاتن" لرجائه فأجابت بأنها: "بمنزل الشيخ موسى"، همس برجاء: "هل يمكن أن تحضرى منها رسالة عدولة؟"

صمت الجميع، فرسالة "عدولة" هى السر الباقى ليعرفوا أصل الحكاية، قالت "حمدة": "يجب أن نفتح رسالة المحرومة قبل أية خطوة"، كشفت "فاتن" القصة التى جعلتها تحتفظ بالرسالة بمنزلها بصندوق مشاعرها، طبطبت "حمدة" على ظهرها وقالت لها: "وضعتِها فى أفضل مكان، اذهبى لإحضارها"، سألت "خديجة": "هل تحضر آن اجتماعنا؟" ردت "حمدة": "اسألوا حمدى! فالأمهات الحنونات، يجب أن يعرفن حكاية المحرومة".

رتبوا ببراعة كيف ستلبس "آن" ملابس الفلاحات، وتعبر للشارع الخلفى من فوق سور منزلها، وسوف يُؤمن "سالم" وصولها كعادته.

خلال نصف ساعة كان الجميع حول النار، و"آن" و"فاتن" و"خديجة" يدخلن من الفتحة الخلفية للمنزل يبشرن بالسر، كانت "آن" تعرف أنها تعيش لحظة مدهشة، انبهرت بوجود "حمدى" على قيد الحياة، عيونها الباكية وهى تحضنه كانت إيذانًا ببركة السماء والخدام العشرة.

الآن يجتمع كل الأخيار فى هذا المكان البكر، حتى "عدولة" حضرت بروحها ورسالة مشاعرها التى تحمل سرها، تحدثوا لدقائق عن الماضى والمستقبل والمعركة المنتظرة، تحدثوا عن المقاومة كفرسان ونساء مبدعات، تحدثوا ليحافظوا على ما تبقى من براءتهم، كانت رسالة الخدام هى الحماية ورسالة "عدولة" هى الأمان، والحلم بالرضا والعيش وسط الأهل دون خوف، والحلم بميلاد جديد.

احتوت رسالة "عدولة" خلاف عشر ورقات كُتبت بخطٍ أزرق جميل على ملف مملوء بالصور وعشر وردات وسلسلة ذهبية مُعلق بها مفتاح الحياة عن رحلتها منذ ميلادها من عين امرأة وخروجها للحياة بصعوبة، كانت الداية التى تشدها من جفن المرأة الحزينة سعيدة بظهور يد المحرومة من العين الباكية.

رجل كان ينتظر مشهد ولادتها، قاسى القلب، قال للداية: "هأخذها من عينيها"، الأم التى أمرت الرجل بالخروج حتى انتهاء الولادة جميلة وطيبة، امتزج صوتها برحيق الرقة، قالت لـ "عدولة" بعد الولادة: "إن الصندوق الذى أحتفظ به، والذى يحتوى على بعض الصور والذكريات هو كل ما أملك يا حبيبتى".

وكتبت في رسالتها: أخذنى الرجل القاسى من يد الداية العجوز، وقال لأمى: "لم أكن أتصور وأنا أبرك عليك فى هذه الليلة وأضع النطفة فى رحمك أن تحملى بنتًا يخيفنى وجهها!"، حاولت أمى أن تثنيه عن إلقائى بالشارع، لكنه قال بقسوة: "من سيطعمها ويكتب شهادة ميلادها؟ أنت لقيطة وهى بنت اللقيطة"، صرخت فى الرجل، رفسته بقدمى فأسرع وألقى بى خلف مقلب القمامة أمام مسجد مهجور دون غطاء.

أتذكر أن امرأة ورجلاً بملامحهما الباهرة أخذانى فى أحضانهما بعد أن قال الرجل للمرأة وهى تتساءل عن المصير: "جبر الخواطر عليك يا رب".

لم أدرِ بعد ذلك كيف وصلت إلى دار اللقطاء التى امتلأت بالأشباح والشر، وحولت روحى إلى غولة أعض من يلمسنى، هربت من الدار لأنجو بنفسى من البرك التى حفروها

بأرواحنا، تسلمنى رجل قاسٍ بالشارع الخلفى، كان يستمتع بامتطاء الرجال أردافه، ومع ذلك أغلق علىَّ شقته وأجّرنى للمعاشرة بمائة جنيهفي الساعة، جمع من ورائى ملايين الجنيهات، خلال خمس سنوات عاشرت أكثر من ألف وسبعمائة وخمسين رجلاً.

وفى يوم رحيلى كنت أحس بالوجع يملأ بطنى، لم يقل المجرم إننى حامل، لم أكن أعرف شيئًا عن وليدى؛ لأن أمى ماتت بعد أن خرجت من عينيها الحزينة.

طردنى للشارع قبل الولادة بأيام، قابلتنى امرأة على جسر بلدة قريبة من سكنى البعيد، جلست عندها حتى وضعت، حين شاهدت وجه بنتى اللقيطة أصبت بحالة صرع، سألتنى المرأة: "من أبوها؟" كنت أبكى باستمرار دون رد على أسئلتها، فجأة وجدت نفسى أعود للدار التى آوتنى فى السنين الماضية، حتى حضرت "آن" الرسامة، وولدت بين يديها من جديد، حاولت كثيرًا إيذاءها لاختبار إنسانيتها، لكنها دائمًا كانت تكسب كل الجولات.

حين تفتح هذا الخطاب بأصابع يديك لن أكون معك، فيجب أن تبحث عنها وتثق بها إذا قبلتك عبدًا فى عشها، فاعلم أنك نلت ما تمناه البشر منذ الخلق، سوف تحس فى وجودها بالرضا الذى لم يخدشه الشر ولا حكايات المجرمين الذين عاشرت منهم الكثير، واعلم أن العصابة الحقيقية هى التى انتقلتُ إليها بعد العيش مع "آن" لبيت "فرنسو" وأصدقائه العشرة، إنهم سارقو كنوز الأجداد من تحت أرض الخضر، نهبوا الآثار بحماية الأجهزة، تقاسموا أرواح البشر الطيبين لينعموا بالرخاء، ومع ذلك ظلموا كالوحوش، لم يشبعهم كل القتل والسرقة، والنهب والخطط التى حدثت تحت سمعى وبصرى.

ارتعشت يد "حمدى" وهو يقرأ سطور سر امرأة غامرت بحياتها وضحت بروحها من أجل بلوغ النهاية ، فاستكمل القراءة بصوت باكٍ والصمت يعم المكان: "عاش معى سنين يحاول أن يسرق روحى، لكن آن كانت قد دربتنى على المقاومة، فقررت كتابة الرسالة التى سلمتها إليك بكل أسرارى، كنت أضع فيها أحزانى وأفراحى، إنها الكنز المملوء بالذكريات والأحلام بالرضا لامرأة لقيطة تبحث عن الأمان بالعيش فى بيت فسيح مزروع بالأشجار، ويلعب أطفالها حولها ينتظرون عودة الغائب المحمل بالهدايا والبهجة فيلقيها علينا ويغمرنا ببهائه، حاولتُ طوال الأربعين عامًا الماضية أن أبحث عن هذا الرجل الذى لم أجده، حين شاهدتك منذ عدة أسابيع عرفت أننى عثرت على الكنز، لكننى كنت أعرف أن اليوم الذى سأعثر فيه على وليفى، سوف يقتلنى "فرنسو"، هكذا قال كبير الأجهزة وهو ينقلنى من بيت "فرنسو" للخضر: "وجودكِ وحياتكِ مرهونة بإيجاد الرجل الذى يمكن أن يملأ قلبك بالدفء ويعيد لك البراءة".

أكد "فرنسو" أننى إذا عثرت عليه فسوف يتركوننى بحالى؛ لأننى سأكشف السر الذى يبحثون عنه".

فجأة أعطى "سالم" الإشارة، صمت الجميع، خرجت "فاتن" فقال: "الخدام العشرة بقرية الأبعادية أبلغونى بأن حملة من مئات سيارات الشرطة تتوجه لإبادة الخضر، هناك عشرات المجنزرات والدبابات يسيرون باتجاهنا"، قالت "فاتن": "أين هم الآن؟" قال: "فى أول الطريق يحتاجون حتى وصولهم لساعة على الأقل"، قال "ضاحى": "استكمل قراءة الرسالة".

كانت "عدولة" تسرد قصتها ودموعها تبلل الأوراق لتعلن ميلادها وسط قرية الخضر، كانت تحكى عن بشاعة "فرنسو" و"دياب"، و"يوسف" و"إيفلين"، و"أمين" و"عثمان"، و"رشاد" و"موسى"، كانت تحكى عن زوجاتهم بحب، كانت تقول إنهن الأمل لنجاة هذه القرية،

حتـى "زوبـة" التـى كانـت دائمًـا تتشـاجر معهـا كتبـت عنهـا بـالخير، كانـت تحـس بقلـوب النسـاء الرائعات اللائى شكلت أجسادهن الرائعة رمزًا للرضا خلال رحلة البشر الطويلة.

ذكرت بأنها وثقت بـ "حمدى" حين شاهدته أول مرة، ارتعبت خوفًا عليه؛ لأنها كانت تعلم أن يد الشر سوف تطوله؛ لأنه قرينها الذى تبحث عنه عصابة "فرنسو"، كانت لا تدرى هل تطالبه بحماية نفسه أم بحمايتها، أم بحماية المشاعر الطيبة لأهالى الخضر الذى يشكل بقاؤها حرمان المجرمين من طمس تاريخ الأجداد الأوائل.

قالت إذا تدخلت الآلهة وحمتنا وحمتك وحمت الخضر فسوف أعيش فى ظلال روحك أتدفأ بقلبك، سوف أعود مرة أخرى لأمى لأتعرف عليها وسط البشر، وأضع بصندوقها الخشبى كيس المشاعر المملوك لى، وإذا لم يحدث ذلك فإن رسالتى وابنتى اللقيطة التى تركتها عند امرأة عجوز لا أتذكر إلا اسمها الجميل "رحمة"، هى مسؤوليتك، ابحث عن ابنتى اللقيطة واكتبها باسمك، لا تتركها دون أسم، اقتلوا هؤلاء الرجال القساة الذين ألقوا بالأرواح الطيبة فى الخلاء لمنع العار الذى يملأ قلوبهم.

أطلقت "حمدة" قرار الخدام قائلة: "يجب نقل الرسالة لضريح عدولة"، قال "حمدى": "ألن نستكمل قراءة الرسالة؟" قالت: "لا يهم كلنا نؤمن بعدولة، ما تقوله هو السر الملقى بصناديق أسرارنا جميعًا"، كانت الصور التى تداولتها أعينهم لـ "عدولة" وهى على شاطئ البحر باهرة بالإضافة إلى صورها مع "آن" فى مرسمها وببيت اللقطاء، كانت صور الشمس والأشجار والميادين رائعة الألوان، أحيت الوردات العشر فيهم القوة والتحدى، قالت رسالتها: "إن السر فى رقم عشرة، إذا تمكن عشرة أشخاص بكل قرية من الاتفاق على تطهير الدنس فسوف يحققون ذلك، سوف يساعدهم القدر، إن عيسى فى عشائه الأخير كان يتوسط عشرة أخيار، ورسالة محمد لم تنجح إلا بعد اكتمال العشرة المبشرين بالجنة".

إن كل قرية بها عشرة أضرحة هى محمية من رجس الشياطين والغيلان، إذا كنتم تسعة واستكملت "آن" رقمكم العاشر فسوف تنجحون، نظرنا فى وجوه بعضنا البعض، كانت "آن" هى العاشرة بعد قطع قدم "على أبو شنب" فى الأحداث الماضية ومكوثه بمنزله لتلقى العلاج، خرجت "حمدة" من باب المنزل الأمامى فخرجو وراءها، قالت لـ "شرف": "أطلق الصرخة"، تجمع مئات الرجال والنساء والأطفال حاملين البنادقَ والفؤوسَ، قالت: "سوف نقابلهم قبل محطة المياه فى الصحراء، أمامنا عشر دقائق، سوف نجعل دباباتهم ومجنزراتهم تجبر للنزول للمنخفض أمام محطة المياه، ونبيدهم عن آخرهم"، قالت "زوبة": "لن نترك المخبر والشيخ موسى أحياء بالقرية"، قالت "حمدة": "التحقى مع فرقة التطهير لتحرقوا دماءهم قبل عودتنا منتصرين".

لم تستغرق المعركة أكثر من ساعتين حتى كانت الفرقة التى أرسلها "دياب" و"فرنسو" لإبادة القرية قد انتهت عن آخرها، حلقت طائرات فى السماء، وألقت ببعض القذائف بالقرب من القرية لكن الشعاع المحيط بضريح "عدولة" كان يقابل القنابل ويعيدها مرة أخرى للفضاء لتنفجر الطائرات بحاملات الجنود.

سمع الخدام العشرة فى القرى المجاورة أحداث الخضر فقرروا الخروج، حرقوا الجمعيات الزراعية ومراكز الشرطة، طاردوا العصابات التى نهبت الآثار والبرديات والكنوز، وتاريخ الأجداد الأوائل.

في هذه اللحظة كانت "آن" تجرى مع "زوبة" وفرقة التطهير ليضعوا رسالة "عدولة" داخل ضريحها، قالت "آن" لـ "زوبة": "هل يمكن أن أحتفظ بمفتاح الحياة؟" ردت "زوبة": "أنت منا وسوف تجعلينه أمانة فى عنقك، لن يضيع منك، لا تأتمنى عليه الأشرار لأن المحرومة قالت إن كل محتويات الكيس أمانة لنيل الرضا".

حضنت "آن" "زوبة" وبكت قائلة: "نحن جميعًا أبناء المحرومة، لن ينتصر علينا القهر، لن ينالوا الرضا جبرًا عنا، لن يدنسوا أرواحنا".

لم يكن هناك وقت، تجمع أكثر من مائة امرأة وطفل وعشرة رجال كانوا قد كتفوا جنود مركز الشرطة الجديد وألقوا بهم فى ميدان الخضر، واقتادت مجموعة أخرى عصابة الأربعة "عثمان" و"أمين"، و"رشاد" المخبر والشيخ "موسى"، وألقوا بهم وسط الميدان.

قالت "زوبة": "إن حرقهم أو إغراقهم بمياه البركة المالحة سيطهر الدنيا من شرورهم كما قالت الرسالة".

صرخت "فاتن" بعد علمها بوصول المجنزرات على أول الخضر وسماع دوى طلقات الرصاص: "ليس هناك وقت فلنحرقهم"، ألقوا بجراكن الجاز على رؤوسهم، أشعلوا النار بأجسادهم، كان بخارها أسود ورائحتها نتنة، لولا بركات ضريح "عدولة" لكانت فرقة التطهير قد ماتت خنقًا بسبب الرائحة القذرة التى خرجت من عظام البشر المتوحشين.

اقتادت "زوبة" الفرقة لقسم الشرطة والجمعية وبيوت عصابة الأربعة، واستولوا على ما بها من مؤن، ثم أحرقوها تعبيرًا عن طمس الشر الذى دنسوا به أرض الأجداد الأوائل.

رغم حرق المجنزرات والجنود المكلفين بإبادة القرية فى منخفض محطة المياه، ورغم قذف الطائرات المتكرر وشعاع ضريح "عدولة" الذى أمَّن حماية الخضر، فإن "حمدى" و"حمدة" قتلتهما يد الغدر فى المعركة، فعاد باقى الخدام حزانى غير مصدقين قدرة الموت على نزع روح الحياة من وسط الدنيا.

كانوا يرفعون الجثتين والدماء البريئة تملأ وجهيهما وملابسهما، لم يهتم أحد بتفاصيل مقتلهما، لكن "فاتن" صرخت: "اجعلوا روحيهما خالدة"، ردت "زوبة": "سندفن حمدة بمنزلها ونحوله إلى ضريح"، تساءلت "خديجة": "وأين يُدفن حمدى الغريب؟" ردت "محمودة": "بمنزل موسى الذى تقيم به آن، إنه المنزل الذى يتوسط قريتنا وقلوبنا، سيصبح منارة الخضر، ليحمى رضا الأطفال ببهجة صباح العيد".

صرخ "ضاحى" فى السماء: "جبر الخواطر عليك يا رب"، لم يكن هناك وقت للبكاء، الكل تجمع لإزاحة آثار الحريق، ولف الأضرحة الجديدة بالورود وتغطيتها بأجمل الثياب.

لم ينتهِ اليوم إلا وتنفست الخضر من جديد ريحانًا سماويًا غريبًا، نالت رضا الآلهة بوجود ثلاثة أضرحة بين منازلها خلال عشر سنوات فقط على نشأتها، قالت "فاتن": "نحتاج لاجتماع الخدام لنعرف المصير"، جلسوا بميدان الخضر والجميع يحيطهم ليشاهدوا النور يخرج من قلوبهم، قالت "خديجة": "لن نصبح كالشمس إلا إذا اكتمل العدد"، نظروا جميعًا حولهم ليرشحوا بعض الأهالى ليكتمل عددهم، كان جميع أهالى القرية خدامًا، لكن "فاتن" قالت بحب: "يجب نزول واحد منكم لاستكمال دائرة الشمس".

قال "محمود" بن "عيشة" زوجة الشيخ "موسى" وهو يتقرب منهم: "إن أمى كانت تحكى عنكم بالخير"، اقتربت أخت "موسى" الذى طردها من المنزل ليستولى عليه، وقالت: "شفتنى يد عدولة وهى تطيب خاطرى لأتحمَّل قسوة قلبه، ربيت محمود بعيدًا عن شره، لم يزره موسى وترك عيشة شهورًا كثيرة تنام ببيتى ليكنز تركته الزائلة"، بكت "فاتن" بعد اكتمالهم، وقالت: "لن يكتمل هذا اليوم إلا إذا تحدثت كل النساء ليحكين عن صندوقهنَّ الخشبى، أطلقت "خديجة" صرخة قوية لتحضر كل امرأة صندوقها السرى لتفتحه فى وجود الجميع، فالخضر أصبحت فى مأمن من الخوف، لم يعد هناك صناديق للحرمان، سرت قشعريرة فى جسد الجميع، انطلقت للسماء لتضىء الظلام وتحيط بكل مساكن القرية، قالت "زوبة": "سأبدأ بحكايتى"، صمت الجميع لأن صندوق "زوبة" ملىء بالعجائب.

"الأيادى المتشابكة"

كان مشهد مداخل القرى فى بلاد الأجداد الأوائل رهيبًا، تجمع الصبية والرجال ماسكين الشماريخ والمناجل، وأحاطوا بقراهم مدافعين عن الخدام العشرة والأضرحة، هجرت مراكز الشرطة ومقرات الجمعيات الزراعية بعد حرقها بفعل الظلم المتراكم على مر السنين، مرت قرية الأبعادية الملاصقة لتونس بأحداث عصيبة فى هذا الوقت، فقد تجمع خدامها ليلة الأمس مع أبناء القرية فى جرنها الواسع، ووضعوا أكف أيديهم فوق بعضها البعض لتشكل الأيادى المتشابكة رمزًا لطريق الخدام العشرة فى المستقبل، قرروا تطبيق رسالة "عدولة" لحماية البراءة وصناديق مشاعر النساء، كانت رحلة هؤلاء الفلاحين طويلة؛ لأنهم يواجهون زعيم العصابة "دياب" مالك الأرض والسماء المتشعب العلاقات وابن الذوات، لكنهم تمكنوا فى غفلة من الزمن من إلقاء الخوف من صدورهم، وحملوا السكاكين والفؤوس والبنادق، وقرروا النزول للأرض التى كان يزرعها آباؤهم، استعادوا سيرة أبطالهم العشرة الذين رفعوا المناجل فى وجه جبروته بالماضى.

تجمع الرجال بأطفالهم وشيوخهم ونسائهم ليلة الجمعة على الكوبرى الواصل لأراضى "دياب" بالآلاف، كان الليل المظلم يساعدهم على اختراق السكون، قالوا للمخبرين على الكوبرى: "ابعدوا عن طريقنا"، قال المخبرون بخوفٍ تمكن منهم: "كيف ستعبرون لأرض دياب باشا وتستولون على الفاكهة؟ أتصدقون كلام الخدام العشرة؟ سوف تغدر بكم السلطات إذا علمت بنيتكم"، قال "شمندر" العجوز كبير الخدام بالأبعادية لرئيس المخبرين: "أتختارون الموت أم الهروب؟" قال المخبر الميت: "ليس لى أرض"، واختار حياته.

انطلق الأطفال والنساء والعواجيز يتقدمهم الشباب ببنادقهم وشماريخهم، وفؤوسهم للعودة لأراضيهم التى حرموا منها بسبب الغدر، تمرغوا فى ترابها، احتضنوا ثمارها، بكت السماء بحرقة وظهرت دائرة كبيرة بيضاء تتوسطها "عدولة" وهى تلبس أزهى الألوان فوق رؤوسهم كالشمس.

بكت النساء ، انتابتهن مشاعر غريبة أعادتهن مرة واحدة إلى روح "عدولة"، انطلقت النساء من البيوت يجرين فى الشوارع، حاملات صناديق أسرارها ليفتحنها علنًا أمام الجميع فى الميادين.
ظهرت "ثناء" زوجة "سعيد" السائق وابنتها "صفاء" عاريتى الرأس باكيتين، اعترفتا أمام "مبروكة" أم الخدام بخطيئتهما للمكوث فى بيت المجرم "سعيد" كل هذا الوقت، لكنهما تمكنتا ليلة الأمس من فتح بطنه وأكل كبده الملوثة بالأمراض، قالت "مبروكة" أم الشمس: "انضما إلينا، لن يفوتكما قطار الرضا".

اختفت الذئاب وسط الليل، لم يعد إلا تغريد العصافير والطيور رغم القهر، قال "شمندر" العجوز: "ليس لحياتكم معنى إذا خرجتم من تلك الأرض مرة ثانية"، تذكرت شيوخ القرية الماضى فبكى "أبو شافعى" البطل العاشر فى معركة الأجداد الأوائل وقال: "عدنا للأرض التى حرمونا منها"، وتساءل "انقلع زرعهم كما فعلوا بمحاصيلنا"، ردت امرأة شابة يشع وجهها براءة كـ "فاتن": "الزرع لا يقلعه الفلاحون".

صرخت "مبروكة" أكبر النساء سنًا فى الأبعادية: "حينما أخذوا أرضنا فى الماضى خلعوا كيزان الذرة، وألقوها بالطين وفعصت آلاتهم زهور البامية، كنت أصرخ ليتوقفوا، لطمنى دياب دون رحمة، وقال: "غورى فى داهية يا ولية"، ورغم استمرار صراخى لوقف الغدر

بالزرع فإن المخبرين والمجرمين التابعين له جرونا من الأرض، وألقوا بنا فى سياراتهم، وأخذونا لسجن الشرطة ليهينوا كرامتنا".

المشاهد الكثيرة التى تذكرتها "مبروكة" و"أم السعد"، و"شمندر" و"بهنس"، و"عويسية" و"عطية"، و"سعاد" و"صباح"، و"الروبى" و"زكية" أكدت الخلاص، قالوا حكايات وحكايات عن الصبر والتحمل، والقوة والغدر والحب، حكوا عن بطولات الأجداد العشرة الذين واجهوا توحش "دياب" وعصابته، ورفعوا المناجل فى وجه جنوده وصرخوا بإصرار: "لن نخرج من الأرض إلا على جثثنا" ، دهستهم مجنزرات الكلاب وقيدت القضية "انتحار جماعى".

رغم ذلك لم يكن هنا إلا صوت العصافير فوق أغصان الشجر تغنى للفجر الصارخ بنوره، لتكتشف روح أجمل امرأة ساهمت فى إطلاق الحب فوق الارض الحزينة، وأصابت سهامها وأسرارها القلوب لتنضج وينكشف السر.

فى اجتماع قرية الأبعادية التى قرر خدامها العشرة قبول التحدى ومواجهة "دياب"، كانت النساء ترغب فى سماع باقى حكاية "عدولة" و"آن"، و"حمدى" و"فاتن"، و"سيد الصعيدى" و"محمودة"، و"ضاحى" و"خديجة"، و"زوبة" و"شمس"، لكن "شمندر" العجوز قال: "لا يمكن أن نروى حكايتهم إلا بالاستيلاء على قصور تونس، قالت "مبروكة" العجوز: "سوف ننتصر ، دخلوا قصور تونس العشرة، نظفوها من أشباح رواد جمعية الأرواح، طاردوا العناكب والخفافيش وأضاءوا حجرتها، نقلوا رفات الأبطال العشرة إلى هذه القصور، جعلوها أضرحة لأبطالهم الذين دهستهم مجنزرات "دياب"، جعلوها مزارات بعد أن أحاطوها بأشجار التوت والجميز، أصبحت منارة للنور لتطهير الروح وشفاء البدن من الألم.

خرجت النساء بالقرية والقرى المجاورة بالشوارع عاريات الرأس يبغين الخلاص، حاملات صناديق أسرارهنَّ وصور الماضى والأجداد الأوائل ليضعنها بأضرحة الأبطال العشرة بتونس، كانت الأم العجوز تطالبهنَّ بالهدوء وهن يصرخن: "لن تكون هناك صناديق أو أسرار بعد اليوم".

انتشر الخبر فخرجت النساء فى كل مدن وقرى الدنيا عاريات الرأس والجسد يحملن الصناديق والرسائل يعرضنها بالميادين، ويضعنها بالأضرحة يطلبن الخلاص.

أضحى المشهد مهيبًا، الدنيا تتحرر وتنكشف الأسرار، النساء تضع صناديق ذكرياتها الأليمة بالأضرحة، تأسست مجموعات للخدام العشرة بكل قرية حافظت على روح الحياة وبراءة البشر.

بكت العصافير فى أعشاشها لبلوغ البشر مرة ثانية مراتب الآلهة، أطلقت الحيوانات والنباتات ومياه البحر والنهر أصواتًا غريبة مدهشة محت الشر من تحت السماء، كانت "آن" تبكى فوق ضريح "حمدى" المقام فى منزلها، قائلة: "اقبلنى أيها الملاك الحارس"، تذكرت الرسالة فشكرت "عدولة" على امتنانها وإخلاصها حين قالت: "إذا مت وعثرت على الرسالة فاسمح لأول امرأة تقابلك بعد قراءتها للدخول بحقل مشاعرك؛ لأنها خليلتك، اقبلها رفيقتك فهى تؤمن بأنك وحدك حامى أسرارها وكاشف براءتها".

كتبت "آن" فى مذكراتها ، أكدت الأحداث الأخيرة مدى زيف البحث الذى أطلقوه بعنوان "جبر الرضا"، لنقبل مصيرنا المظلم الذى رسموه مع أشباحهم فى وادى الموت، فطريق الأيادى المتشابكة والتضحيات الرهيبة لهؤلاء الفلاحين أكد أن السعادة فى الرضا وحده وليس الجبر.

علمت من "فاتن" أن أهالى الأبعادية مثَّلوا بجثث "إيفلين" و"فرنسو"، و"يوسف" و"دياب"، فتأسفت لذلك، فردت "فاتن": "الأشرار لا يستحقون إلا هذا المصير".

كان مشهد عودة "شرف" بن "سيد الصعيدى" من السجن لقرية الخضر رهيبًا، بكت "فاتن" حين علمت بالخبر، وصرخت "خديجة" والفرح يبهر قلبها: "يا بت يا فاتن ، شرف رجع يا بت، حبيبك رجع يا تونة"، أية نبرة رائعة أطلقت بها "خديجة" إعلان عودة الغائب لتبهر الجميع ؟!

جرت "فاتن" عارية الرأس لأول البلدة وجميع النساء طرن وراءها باكيات فى استقبال البطل الذى اتهم ظلمًا بقتل "عدولة"، نزل البطل من سيارته، لم يرَ إلا "فاتن"، دخل عيونها ونام، كانت الأضرحة الثلاثة لـ "حمدة" و"عدولة" و"حمدى" تلقى بأطنان الحب على وادى الخضر، فانتعش الناس واهتزت جوارحهم، بكوا بحضن بعضهم البعض ليتطهروا.

أخذته "فاتن" إلى منزلها، دعكت جسده بالورد، تلمست أعضاءه لتطهرها من الدنس فارتفع بروحها للسماء، زفوها للبطل العائد بشهادة رب السماء والأرض.

حضر "سالم" باكيًا من الحقل والطين، والمياه تبلل جسده، أخذه بحضنه، وقال له والدموع تغرق الأرض من تحتهم: "سوف نعمل مع زوجاتنا ونساء القرية على طريق الأيادى المتشابكة لنشر الرضا".

عرفت "آن" أن الدكتور "عبد العال" و "الحسينى" قد تم اغتيالهما، بعد أن تمكن أبناء المدن من دخول مبنى مركز البحوث والاستيلاء على كل مستنداته، كان سائق سيارة "حمدى" هو من قاد الجمع لاقتحام مبنى الجامعة الأمريكية.

قيل إن الأجهزة الجديدة أحرقت وقتلت كل من له علاقة بالجمعية الروحية؛ لتطمس جرائم ارتُكبت تحت اسم "جبر الرضا".

اغتالت الجموع ضابط المخابرات "دسوقى" قطعو جثته ورقبته ، كان منظره بالصحف قبل الاغتيال بيومين وهو يهدد الخدام مضحكًا، وقتها قالت "حمدة": "إن روحه ميتة، يجب تقطيع جسده".

لكن الكثير من الشهود أكدوا انتحاره حين علم بانتصار جماعة الأيادى المتشابكة واعتلائهم العرش فى معظم القرى.

وقفت "شمس" زوجة "على أبو شنب" بميدان الخضر فخورة بأبنائها، وقالت: "عثر الخدام العشرة على سراديب جديدة لكنوز "قارون" والأجداد الأوائل، قاموا بمعاونة القرى الأخرى باكتشاف الكنوز والآثار والبرديات التى دلَّت على خلود هذه القرى بسبب أضرحتها".

كان السرداب الذى بدأ من أسفل محطة المياه ينتهى فى الصحراء خلف حقول الفلاحين، أزال الناس الرمال لتظهر آثار وكنوز الأجداد للعالم تضىء قلوبهم، أحاطوها بأشجار الورد

والتوت، والكمثرى والبرتقال، والزيتون والليمون، والتين والجميز، نشرت عبقًا وروائح طيبة مملوءة بالرضا.

وقف "شافعى" حارس بوابة "فرنسو" وخال "فاتن" بفخر أمام الأضرحة العشرة، وقال: "سوف أحميهم"، قالت "عويسية" فى سخرية بعد أن ملأ المجتمعون سماء الدنيا بالضحك: "أنت كنت تحمى قصور الأشرار، لكن الخدام يحمون براءة البشر ".

هرب "ربيع" و"خالد" و"بيجاد" والدكتورة "هدى" إلى البلاد البعيدة مُتخفين فى ملابس النساء ليدللوا من جديد على أن النساء هن المنوط بهنَّ حماية الحياة ، ملأوا حساباتهم بالأموال وحقائبهم بكنوز الأجداد الأوائل، تمكنوا مع أنصارهم بدعم الأجهزة ، تقاسموا أموالهم وهجروا خارج نطاق بلاد أضرحة النور.

احتضنت "هنية" "محمود" بن الشيخ "موسى" وزوجته "عيشة"، وعاشت معهما فى منزلهما كأمٍ لهما، قالت "زوبة" لـ "هنية": "هل تقبليننى بمنزلك خليلة؟" ردت "هنية": "أنت أختنا جميعًا، دعونا نزور ضريح عدولة الشريفة"، بكت شمس وذهبوا لضريح العفيفة، ناموا ساعات معًا ملتحفين ببراءتها".

قالت "آن" للجمع المحيط باجتماع الخدام العشرة: "إن الأجهزة قتلت مئات الضباط وحبست باقى الخونة"، ردت "فاتن" بقوة: "يجب أن تستولى الأيادى المتشابكة فى القرى والمدن على كل السلطة لإعادة توزيع حصص السماد والدقيق بالعدل، كفانا حبسًا واغتيالات وخيانة"، كان الطريق طويلاً لبلوغ الرضا، لكن مشهد طفلتىّ "حمدى" وهما يقتربان من الجمع، ويسألان "آن" عن قبر والدهما، فى صحبة امرأة متسولة أعادهما للبداية.

صرخت المرأة التى كانت تتسول بالقرية القديمة وتساءلت: "أين عدولة؟" وصرخت فى السماء : "أنا اللقيطة بنت اللقيطة"، ونادت كالمجنونة: "يا عدولة أنت فين يا حبيبتى!!"

سألوها: "من أنتِ؟" قالت: "أنا المحرومة من الحنان"، سألتها "فاتن": "كيف عرفتِ بنات حمدى؟" ردت قائلةً: "إن أم الطفلتين تركتهما أمانة عندى بعد أن اعترفت بأسرار صندوقها أمام المارة بالميدان فقتلها ملثمون باللحى والغدر بعد نشر ذكريات الرعب فى الشوارع".

عرف أهالى الخضر أبناء مرشديهم، انفجرت الدموع تغرق الميدان، كادت أرواحهم تموت كمدًا، لكن "فاتن" صرخت على العفيفة لتحمى النور، صحوا جميعًا من غفوتهم، وأخذوا البنتين لضريح "حمدى" ليرشدهم للطريق.

قالت "خديجة": "إنها ليلة الخميس المبهجة، سوف نعقد الاجتماع بضريح الملاك"، اكتشفت "خديجة" سر خطر "حمدى" الذى تحدثت عنه عصابة الأربعة فى منزلها قبل شهور، الآن فقط عرفت لماذا كان "موسى" ينظر إلى "حمدى" بغل وغرابة وهو يقرر المكوث بالخضر عدة أيام.

تذكرت قول المخبر عشيقها أمام زوجها "أمين": "لن يمكث كثيرًا، إنه ابن المدينة المدلل، كيف يمكنه تحمل قسوة حياة الخضر؟!" قالت: "كنت أتمنى يومها بسبب ذعرهم أن يقبل "حمدى" التحدى، وكأنَّ القدر سمع ندائى لتتحول الخضر إلى قرية ساحرة، وتصبح ملاذًا للخلاص والرضا".

لكن التحدى وطريق الأيادى المتشابكة لم يُفتح إلا بصمود وتحمل "عدولة" طوال السنين وثقتها بقلبها الريان.

قالت "فاتن" لابنتىّ "حمدى": "كان والدكما يرغب فى استكمال حياته بالخضر، يزرع الليمون والزيتون، والعدس والبصل، والقمح، كان يثق بأنكما سوف تأتيان لزيارته وتفتخران بإنتاج أرضه، كان يحلم أن تشق السماء لتفصح عن نورها لتصبح الخضر منارة للعالمين، كان يحلم مع "عدولة" بأن تجتمع روحهما فى براح بيت محاط بالورود، يطلقون عليه "منارة الرضا".

دخل الجميع فى نوبة بكاء ، أمطرت السماء فجأة بغزارة، فحولت الخضر إلى لوحة رائعة وسط الصحراء تملؤها أضرحة الخدام، وتحيطها الزراعات وبيوت وكنوز الأجداد الأوائل، هطلت مياه المطر لتدفن ماضى العصابة، فلم يعد لذكراهم أثر.

انهمك الجميع فى رصف شوارع القرية، وتشغيل محطة المياه، واستكمال الصرف الصحى، ومعالجة المرضى، أُطلقت الألوان المبهجة لبدء الاحتفال بليلة الخميس ، المولد الكبير لعشق الرضا، فظهرت "عدولة" و"حمدة"، و"حمدى" وسط الاحتفالات تؤنس وحدة المريدين.

غسلت المياه آثار الأجداد فارتفعت القرية لأبواب السماء، شاهدوها بأنفسهم تطير كالعصافير رغم المطر المنعش وسط الشوارع وضوء القمر، وأصبحت الخضر أجمل لوحة لنيل الرضا ، وانتهى الجبر للأبد.

الوراق

٢٠١١

حبر الرضا

الآن [illegible] "إرادة القدر" [illegible] قابل الناشر "عبد العال" ليشغلني من الوقت للعمل في هذا المشروع [illegible] الذي عاودني من جديد [illegible] ، كنت [illegible] اسم لمشروع "حبر الرضا"، [illegible] النجوم والخطوط المتقاطعة تصورت كلمة "الرضا" [illegible] والنجوم حولها من كل اتجاه، لكن لدق الطارق على باب المنزل أعادني [illegible] وجدت "شيخ [illegible]" [illegible] مملوءة بالخبز والزبد والعسل، قائلاً في انكسار: "الفطور براحتك، وبعدين اتصل [illegible] لك بالطالات، ثم [illegible] حاضرين"، [illegible] الباب ورائه، وقلت له: [illegible] وسأكون حاضراً لاستقبالكم